من أسرار التعبير القرآنى

"دراسة بلاغية لسورة الأنفال"

إعـداد

دكتـور

أحمد منصور خلف الله منصور

كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان

قسم البلاغة والنقد ـ جامعة الأزهر

من أسرار التعبير القرآنى

"دراسة بلاغية لسورة الأنفال"

د. أحمد منصور خلف الله منصور

كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان

قسم البلاغة والنقد – جامعة الأزهر

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، القائل وهو أصدق القائلين فى كتابه المبين: " **الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**" (الرحمن/١-٥) نحمده سبحانه حمد الشاكرين، ونصلى ونسلم على سيد الخلق، وحبيب الحق، محمد بن عبدالله سيد الأولين والآخرين، الذى أنزل عليه سبحانه فى كتابه العزيز "**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ**"(ص/٢٩) ورضى الله عن صحابته الغُرِّ الميامين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين. **وبعد...**

فلما كان أفضل الأشياء كتاب الله المنزل على نبيه – ﷺ – حشد علماء المسلمين طاقتهم من أجل دراسة هذا الكتاب الكريم وتدبُّره واستخراج معانيه، والبحث فى أسراره، وصبروا فى ذلك كله ما لم يصبروا على غيره.

وقد سيطرت الروح الحذرة على العلماء فى دراستهم هذه خشية الوقوع فى المحظور لأن ما فى القرآن الكريم هو دين الله وحلاله وحرامه فراجعوا

علومهم وفروعها، ودققوا فى المراجعة، ومن ثم كان أفضل المناهج وأصحها ما كان من العلوم المتصلة بالقرآن الكريم.

ولا يقل حال البلاغى الذى يدرس النص القرآنى ويتناوله عن حال بقية العلماء من حذر وتدقيق، " وموقفه أمام ألفاظ القرآن وصوره وإن شابه موقفه أمام ألفاظ الشعر وتراكيبه وصوره، إلا أن ثمَّة اختلافا لا يجوز إهماله، لأنه مع القرآن يستنبط شرعا وأحكاما وأسراراً وإعجازاً، ومع الشعر يستنبط صنعة فقط، ومن ثم كان الحذر والتدقيق".

وقد حاولت فى حذر ووجل استجلاء سرٍّ من أسرار التعبير القرآنى فى سورة الأنفال فى هذا البحث معتنياً بربط الآيات، وبيان الغريب، وذكر ما خفى إعرابه، وبيان الأسرار البلاغية ودورها فى التعبير القرآنى من خلال بيان المعنى العام.أسأل الله – عزوجل – التوفيق والسداد إنه ولى ذلك والقادر عليه.

سورة الأنفال

تسمى بهذا الاسم لأن مستهلها ذكرت فيه الأنفال ونزل بسببها، كما تسمى بسورة بدر لأنها نزلت عقب غزوة بدر متضمنة أحداثها وظروفها وملابستها، والسبب الذى كانت من أجله غزوة بدر الكبرى وما كان من نزول الملائكة فيها، وما كان بشأن الأسرى وأخذ الفداء منهم، إلى غير ذلك.

والنفل النافلة ما كان زيادة على الأصل، وسميت الغنائم أنفالاً لأن المسلمين فُضِّلُوا بها على سائر الأمم الذين لم تحل لهم الغنائم.

وسورة الأنفال هى سابعة السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال على أن براءة من الأنفال وكلاهما سورة واحدة فقد اعتبر بعض العلماء أن الأنفال وبراءة سورة واحدة، وقد كان هذا الاعتبار عند بعض أصحاب رسول الله -ﷺ-، الأمر الذى من أجله لم يكتب الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه- بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم عند كتابة المصحف العثمانى.

وقد اختلف فى عدد آياتها الكوفيون والحجازيون والشاميون، فأهل الكوفة يقولون إن عدد آياتها خمس وسبعون، وأهل الحجاز يقولون إنه ست وسبعون آية، وأهل الشام يقوله إنه سبع وسبعون آية والسورة لم يختلف فى كونها مدنية، وإنما الخلاف فى كونها مدنية كلها أو لا، فقد قيل: كلها مدنية إلا قوله تعالى "**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ**

يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ"(الأنفال/٣٠) فإنه نزل بمكة، وقد رُدَّ هذا القول بأن هذه الآية بعينها نزلت فى المدينة.

وقد قيل إنها مدنية كلها إلاَّ قوله سبحانه وتعالى " **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**"(الأنفال/٦٤) فإنها نزلت بمكة بعد إسلام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وهو الصحيح (١)

المناسبة بينها وبين سورة الأعراف:

ذكرت فى المناسبة بين هذه السورة وسورة الأعراف قبلها أوجه كثيرة منها: أن سورة الأعراف أمر الله فيها بالعفو فى قوله تعالى "**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**" (الأعراف/١٩٩) وأل فى العفو والعرف والجاهلين للجنس تشمل كل أفراد المأمور به، وفى سورة الأنفال كثير من أفراد المأمور به.

ومنها: أن فى سورة الأعراف ذكر قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، وكيف كانت العاقبة لهم ولأتباعهم، وكيف كانت الدائرة على أعدائهم، وفى هذه السورة ذكر ما كان بشأن النبى واتباعه وما كان بشأن الكفار من أعدائه وقد بينت أن العاقبة لرسول الله واتباعه بالنصر المؤزر وأن الدائرة على أعدائه بالبوار والخذلان والهزيمة.

---

١ - لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ص (٢١٦) وما بعدها وتفسير القرطبى ج٤ ص (٢٨٨١).

ومنها: أنه – سبحانه– فصل فى الأعراف قصص آل فرعون وأضـــرابهم وما حلَّ بهم وأجمل فى هذه السورة ذلك فقال: " **كَـــدَأْبِ آلِ فِرْعَـــوْنَ...**" (الأنفال/٥٢).

المناسبة بينها وبين سورة التوبة:

ومناسبة هذه السورة لما بعدها واضحة جلية، فقد ذكر الإمام الألوسى أكثر من مناسبة بين السورتين، فقال: (١) "ووجه مناسبتها – أى التوبة– للأنفال أن فى الأولى قسمة الغنائم، وجعل خمسها لخمسة أصناف على ما علمـــت وفى هذه قسمة الصدقات وجعلها ثمانية أصناف على ما ستعلم إن شاء الله.

وفى الأولى أيضا ذكر العهود وهنا نبذها وأنه سبحانه أمر فى الأولـــى – أى الأنفال– بالإعداد فقال "**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**"(الأنفال/٦٠) ونعى هنا على المنافقين عدم الإعداد بقوله "**وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً**"(التوبة/٤٦).

وقد ذكر صاحب المنار أن التناسب بين سورة ألأنفال والتوبة أظهر مـــن التناسب بين كل سورتين لأن التوبة كالمتممة لسورة الأنفال لاشتراكهما فى الكثير من أصول الدين وفروعه وأحاكم المعاهدات وغير ذلك فما بدئ به فى السورتين بعد المقارنة بينهما عند الحـــديث عـــن المعاهـــدات وقتـــال المشركين والصيد عند المسجد الحرام وقد ذكر هـــذه المناســـبات أيـــضا السيوطى فى كتابه "تناسق الدرر فى تناسب السور".

---

١ – تناسق الدرر فى تناسب السور ص (١٧٠) تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

" يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ".

المعنى العام:

يسألك أصحابك الذين حضروا بدرا، أو الشباب منهم دون الشيوخ، أو من شرطت له نفلا عن حكم الغنائم،ولمن تكون ومن الذى يقسمهما فقل لهم مجيبا: الحكم فى الأنفال لله والرسول لا شأن لأحد بها ولا رأى له فى كيفية قسمتها بحال فخافوا سخط الله تعالى بخلافكم أمام رسول الله بشأن الأنفال وتلافوا ما بدر منكم وأصلحوا ما فسد من أحوالكم بسبب ذلك النزاع وأذعنوا واسمعوا وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين حقا، وقل للمقاتلة الذين شرط لهم التنقيل أرضوا الشيوخ الذين كانوا عند الرايات وقاسموهم على السوية ولا تستأثروا بما شرط لكم واتقوا الله فى الاختلاف والتخاصم، وكونوا متحابين إخوانا فى الله وأصلحوا ذات بينكم وتساعدوا فيما رزقكم الله وتفضّل به عليكم، وأطيعوا الله فيما حكم وأمر وأطيعوا رسوله فيما قسَّم والتزم بأمر الله، إن كنتم مؤمنين حقا، فإن المؤمن الحق من التزم التقوى وأصلح ذات البين، وأطاع الله ورسوله.

وجاء هذا المعنى فى أسلوب راق وصياغة بديعة دلت على المراد دلالة وافية بليغة، وهذا ما نعرفه من خلال العرض لأسرار بلاغية اشتملت عليها الآيات.

فقوله تعالى" **فَاتَّقُواْ اللّهَ**" معناه اجعلوا بينكم وبين ما نهى الله تعالى وقاية تقيكم بطشه وغضبه وعقابه، ويتحقق ذلك بالخوف منه عز وجل والعمل بما يرضيه سبحانه وهو اجتناب الشجار والاختلاف فى أمر الغنائم، فالأمر بالتقوى بالنسبة لشىء خاص هو نزاعهم وشجارهم بشأن الغنائم، ويصح أن يكون أمراً عاما بالتقوى فى كل شىء ويدخل فيه ما كان منهم بشأن الغنائم، والذى سوّغ هذا التقدير هو بناء العبارة على الحذف هكذا " **فَاتَّقُواْ اللّهَ** " لأن المعنى- والله أعلم فاتقوا غضب الله وعقابه ولاتقدموا على معصية الله، واتركوا المنازعة والمخاصمة بسبب هذه الأحوال، وارضوا بما حكم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، إلا أن الحذف جعل اللفظ عاما يدعوا إلى اتقاء غضب الله فى كل الأحوال.

وذكر الاسم الجليل أولاً فى قوله " **قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ**" وذُكِرَ آخراً فى قوله " **فَاتَّقُواْ اللّهَ** " فجاء الاسم الظاهر فى موضع المضمر، لأنه يصح أن يقال فى غير القرآن" فاتقوه لتقدم الاسم الجليل فى قوله " **لِلّهِ وَالرَّسُولِ**" وذلك لتربية المهابة التى تكون مع ذكر لفظ الجلالة- عز وجل- ومايبثه هذا الاسم من رهبة وجلال فى النفوس.

وقوله تعالى" **وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ** " معناه وأصلحوا ذات بينكم من الأقوال.

ولما كانت الأقوال واقعة فى البين، قيل لها ذات البين، كما أن الأسرار لما كانت مضمرة فى الصدور قيل لها ذات الصدور.

وجاء الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى، والأمر بطاعة الله ورسوله حتى لا يستهان بإصلاح ذات البين، فما كان ذلك التوسط إلا للاهتمام بشأن إصلاح ذات البين وبذلك يكون الأمر به مطلوبا لذاته، ومطلوبا ضمن الأمر بطاعة الله ورسوله ثانيا وتبعا.

ثم قال تعالى" **وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** "، والمعنى أنه تعالى نهاهم عن مخالفة حكم الرسول- صلى الله عليه وسلم- بقوله تعالى " **فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ** " ثم أكَّد أمرهم بطاعة الرسول- صلى الله عليه وسلم- بقوله تعالى " **وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ** " ثم بالغ فى هذا التأكيد فقال تعالى" **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** " والمراد أن الإيمان الذى دعاكم الرسول إليه ورغبتم فيه لا يتم حصوله إلا بالتزام هذه الطاعة فاحذروا الخروج عنها[1].

وذكر الرسول- صلى الله عليه وسلم- مع الاسم الجليل أولا فى قوله " **قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ**" وآخراً فى قوله" **وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ** " لتعظيم شأنه- صلى الله عليه وسلم- وشرفه والإيذان بأن طاعة الرسول طاعة لله قال تعالى فى سورة النساء " **مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**".

وقيل: لأن الأمر مختص بالله تعالى، والامتثال بالرسول- صلى الله عليه وسلم-.

---

١ - مفاتيح الغيب ج ٧ ص (٤٣٤).

وقوله تعالى" **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** " معناه إن كنتم مؤمنين حقا، وهذا شرط جوابه- كما قلت- ما تقدم من الأمر بالتقوى وما بعده عند أبى العباس المبرد وغيره، إذ يجوز عندهم تقديم الجواب على الشرط،، والصحيح ماذهب إليه سيبوبة وهو أنه محذوف الدلالة ما قبله عليه[1]، وفى هذا الحذف تنشيط لذهن المخاطب وإيثارته، وحث على المسارعة إلى الامتثال لأمر الله- عزوجل-.

وقيل: إن "إنْ" بمعنى إذ فهى تعليلية والمعنى اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله لأنكم مؤمنون، فإيمانكم مقتضٍ لوجوب العمل بهذه الأوامر.

وأتى بـ"إن" التى هى للشك لا للتشكيك فى إيمانهم بل ليرتب التقوى والإصلاح والطاعة على الإيمان أى على معنى من شأنه ذلك لا أنه لازم له حقيقة، إلا أن يراد الإيمان الكامل ويؤيد ذلك الآية الآتية.

قال الله تعالى: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ".

---

١ - انظر حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص (٢٦٧).

علاقة هذه الآيات بما قبلها:

لما قال:" **وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** " واقتضى ذلك كون الإيمان مستلزما للطاعة، شرح ذلك فى هذه الآية مزيد شرح وتفصيل، وبين أن الإيمان لا يحصل إلا عند حصول هذه الطاعات فقال تعالى" **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ**.....الآيات.

المعنى العام:

تدل هذه الأيات على أن الإيمان لا يحصل إلا عند حصول أمور:

أولا: قوله تعالى: " **الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** " أى المؤمن إنما يكون مؤمنا إذا كان خائفا من الله، فازعا قلبه لذكر الله استعظاما لجلاله، وحذرا من أليم عقابه.

وقد روى عن أم الدرداء أنها قالت للسائل عن قوله "إنما المؤمنون....." الوجل فى القلب كاحتراق السعفة أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى قالت: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك فإن الدعاء يذهب ذلك. [1]، وقال الرازى:[2] فإن قيل: إنه تعالى قال ههنا "**وجلت قلوبهم**" وقال فى آية أخرى " **الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ** " [الرعد: ٢٨] فكيف الجمع بينهما ؟

---

١ - انظر تفسير ابن كثير ج٢ ص (٢٨٥).

٢ - مفاتيح الغيب ج٧ ص (٤٣٦).

قلنا: الاطمئنان إنما يكون عن ثلج اليقين، وشرح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل إنما يكون من خوف العقوبة، ولا منافاة بين هاتين الحالتين.

بل نقول: هذان الوصفان اجتمعا فى آية واحدة، وهى قوله تعالى: " **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ** " [الزمر: ٢٣] والمعنى تقشعر الجلود من خوف عذاب الله، ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند رجاء ثواب الله.

فى قوله" **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** " قصر موصوف على صفة، وهذا من شأنه تاكيد المعنى المراد، وأيضا جعل الذكر مقتضيا للوجل والاضطراب هنا، وفى قوله" **ألا بذكر الله تطمئن القلوب**" ما يخالفه لأن الذكر الول ذكر عقوبه، والثانى ذكر رحمة، وعبر بالفعل المبنى للمجهول فى قوله"ذكر" للإيذان بأنهم إذا كانوا يخافون لمجرد ذكر الله عند سماع الذكر من غيرهم فإنهم يخافون منه سبحانه إذا ذكروا الله تعالى بأنفسهم.

ثانيا: قوله تعالى" **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** " أى إذا تليت عليهم أية آية من آياته التنزيلية زادتهم تصديقا ويقينا وطمأنينة قلب لأن تضافر الأدلة وتعاضدها وكثرة الحجج والبراهين موجب حتما لزيادة إيمانهم وقوة يقينهم، واستدل بهذا أهل السنة على أن الإيمان يزيد وينقص وبغير هذا من أدلة قرآنية تدل على زيادة الإيمان ونقصانه والقائل بذلك جمهور الأشاعرة، والعمل من كمال الايمان عندهم

وقد قال ابن كثير:" بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعى وأحمد بن حنبل وأبى عبيد كما بينا فى أول شرح البخارى".[1]

وأرى فى قوله تعالى" **زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** " مجازا عقليا أسند فيه الفعل "زاد" إلى ضمير الآيات، وليست الآيات فاعلا حقيقيا لزيادة الإيمان، وإنما هى سبب مؤثر فيها، والحقيقة زادهم الله إيمانا بسبب الآيات سماعا ومعرفة، والله أعلم.

وجمال المجاز هنا وبلاغته فى إبراز قوة تأثير الآيات فيمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثالثا: قوله تعالى:"**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** " أى أن المؤمنين يكونون واثقين بالصدق فى وعد الله ووعيده، ويقولون صدق الله ورسوله، وهذا الكلام يفيد القصر والحصر، بتقديم المعمول"على ربهم" على العامل" يتوكلون" وهو قصر صفة على موصوف، فقد قصر التوكل على الكون على الرب لا يتجاوزه إلى غيره، وهذا يؤكد صدق إيمان المؤمنين، وقد جاءت هذه الصفات الثلاثة الى سبق ذكرها مرتبة على أحسن أوجه الترتيب:

فالمرتبة الأولى هى الوجل من عقاب الله، والمرتبة الثانية هى الانقياد لمقامات التكاليف لله، والمرتبة الثالثة هى الانقطاع بالكلية عما سوى الله، والاعتماد بالكلية على فضل الله،بل الغنى بالكلية عما سوى الله تعالى، وهذه المراتب أحوال معتبرة فى القلوب والبواطن، ثم انتقل منها إلى رعاية

---

١ - ابن كثير ج٢ ص (٢٨٥).

أحوال الظاهر فقال فى الصفة الرابعة والخامسة:"**الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**" ورأس الطاعات المعتبرة فى الظاهر ورئيسها بذل النفس فى الصلاة، وبذل المال فى مرضاة الله[1]

وعبر عن أداء الصلاة بالإقامة فقيل" يقيمون" ولم يقل "يؤدون" للدلالة على أنهم يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل مستوفية شروطها وأركانها وآدابها من أقمت العود إذا شذبته وأزلت اعوجاجه، فهم فى صلاتهم يصلون صلاة مودع مقبل على ربه مع الحضور التام والخشوع الكامل وأدائها فى وقتها الأفضل

وقيل"**ومما رزقناهم ينفقون**" ولم يقل " ومن أموالهم ينفقون" للدلالة على أن المدح منصرف إلى من ينفق مما رزقه الله، وأجمعت الأمة على أنه لايجوز الإنفاق من الحرام، ومن ثم فالحرام لا يكون رزقا كما قالت المعتزلة وأيضا للدلالة على أن المال مال الله ورزقه للعبيد، فالأموال عوارى وودائع عند العبد، وهذا أوجب للإنفاق وعدم البخل.

وقوله "**ينفقون**" يشمل الزكاة وغيرها من الصدقات والصلاة والإنفاق فى الجهاد وعلى المساجد وغيرها من أوجه الخير، ولا يخفى جمال التعبير بالمضارع فى قوله" **يقيمون.....ينفقون**" ودلالته على التجدد والحدوث لهذين الفعلين.

---

١ التفسير الكبير ج٧ ص (٤٣٨).

واعلم أن الله تعالى لما ذكر هذه الصفات الخمس أثبت للموصوفين بها أحكاما أربعة:

الحكم الأول: قوله تعالى:"**أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** " أى أولئك الذين ذكرت صفاتهم هم المؤمنون الذين حققوا إيمانهم بفضائل أعمال القلب وأعمال الجوارح فقلوبهم وجوارحهم مسخرة فى طاعة الله سبحانه وتعالى، ومن ثم فالرجل لايكون مؤمنا إلا إذاكان موصوفا بالصفات الخمس، وهى الخوف من الله، والإخلاص فى دين الله، والتوكل على الله، والإتيان بالصلاة والزكاة لوجه الله تعالى.

والتعبير فى الآية بتعريف المبتدأ والخبر"أولئك هم المؤمنون" يفيدالقصر الحقيقى، وتأكد ذلك بقوله سبحانه"حقا" أى أولئك لاغيرهم هم المؤمنون حقا، والتعبير باسم الإشارة للبعيد "أولئك" يفيد تمييزهم عما عداهم مع بعدهم فى الفضل والشرف، وجاء آخر الآية متسقا مع أولها، فأولها أفاد الحصر وهو قوله تعالى "إنما المؤمنون الذين....." هم كذا وكذا، وآخرها هنا" أولئك هم المؤمنون حقا" أفاد أيضا- كما قلت- الحصر، وهذا من شأنه تأكيد المعنى وتقوية المراد.

الحكم الثانى: قوله تعالى " **لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ**" والمعنى لهم مراتب بعضها أعلى من بعض.

واعلم أن الصفات المذكورة قسمان الثلاثة الأول هى الصفات القلبية والأحوال الروحانية، وهى الخوف والإخلاص والتوكل، والاثنتان الأخيرتان هما الأعمال الظاهرة والأخلاق.

ولاشك أن لهذه الأعمال والأخلاق تأثيرات فى تصفية القلب، وفى تنويره بالمعارف الإلهية، ولاشك أن المؤثر كلما كان أقوى كانت الآثار أقوى وبالضد فلما كانت هذه الأخلاق والأعمال لها درجات ومراتب كانت المعارف أيضا لها درجات ومراتب وذلك هو المراد من قوله تعالى" لهم درجات عند ربهم" والثواب الحاصل فى الجنة أيضا مقدر بمقدار هذه الأحوال.

وجاءت جملة" لهم درجات عند ربهم" مستألفة سيقت لبيان ما أعد لهم جوابا عن سؤال مقدار استدعاه تعداد مناقبهم ومحامدهم كأنه قيل: فماذا أعد لمن هذه صفاتهم ومناقبهم؟ فقيل:" لهم درجات عند ربهم" الآية، أوهو خبر ثان لأولئك، وقوله تعالى" عند ربهم" ظرف متعلق بمحذوف صفة لدرجات مفيد للفخامة الإضافية ومؤكد للفخامة الذاتية المستفادة من تنوين"درجات" أو هو متعلق بما تعلق به الخبر فى قوله تعالى" لهم درجات" وفى إضافة الظرف "عند" إلى "رب" المضاف إلى الضمير "هم" تشريف لهم ولطف بهم وإعلامهم بأن ماوعدهم الله لايضيع عليهم ولايفوتهم.

الحكم الثالث والرابع: قوله تعالى" **وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**" والمراد من المغفرة أن يتجاوز الله عن سيئاتهم ومن الرزق الكريم نعيم الجنة.

قال المتكلمون: أما كونه رزقا كريما فهو إشارة إلى كون تلك المنافع خالصة دائمة مقرونة بالإكرام والتعظيم ومجموع ذلك هو حد الثواب.

وقال العارفون: المراد من المغفرة إزالة الظلمات الحاصلة بسبب الاشتغال بغير الله، ومن الرزق الكريم الأنوار الحاصلة بسبب الاستغراق فى معرفة الله ومحبته.

قال الواحدى: قال أهل اللغة: الكريم اسم جامع لكل مايحمد ويستحسن والكريم المحمود فيما يحتاج إليه، والله تعالى موصوف بأنه كريم، والقرآن موصوف بأنه كريم.

يقول فخر الدين الرازى:" فإن قال قائل: ظاهر الآية على أن الموصوف بالأمور الخمسة محكوم عليه بالنجاة من العقاب وبالفوز بالثواب، وذلك يقتضى أن لاتكليف على العبد فيما سوى هذه الخمسة وذلك باطل بإجماع المسلمين، لأنه لابد من الصوم والحج وأداء سائر الواجبات.

قلنا: إنه تعالى بدأ بقوله "**الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمان وعلى ربهم يتوكلون**" وجميع التكاليف داخل تحت هذين الكلامين، إلا أنه تعالى خص من الصفات الباطنة التوكل بالذكر على التعيين، ومن الأعمال الظاهرة الصلاة والزكاة على التعيين تنبيها على أن

أشرف الأحوال الباطنة التوكل، وأشرف الأعمال الظاهرة الصلاة والزكاة.[1]

ووصف الرزق بالكريم إمَّا من الوصف السببى لأنه الكريم رازقه، أو من باب الإسناد المجازى، أى على سبيل المجاز العقلى، فيكون اسم الفاعل "كريم" قد أسند إلى ضمير "رزق" والذى سوغ ذلك علاقة المفعولية لأن الرزق فى الحقيقة مكرم به لا كريم، وبلاغة المجاز هنا فى التخييل والمبالغة، ومايقتضيه ذلك من تفخيم للمعنى، فالرزق من فرط إكرام الله للمؤمنين كريم معهم، وأيضا تنكير" رزق" للتفخيم وليتسنى وصفه بـ" كريم"ووجه الجمع بين الثلاثة أن الدرجات فى مقابل الأوصاف الثلاثة: الوجل والإخلاص، والتوكل والمغفرة فى مقابل الصلاة، والرزق فى مقابل الإنفاق.

قال تعالى " **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ**".

قصة معركة بدر الكبرى:

يروى أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لما سمع بأبى سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليه وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يلقى حربا وكان أبوسفيان

---

١ - نفسه ص (٤٤٤)

قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان تخوف على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه فخرج ضمضم ابن عمرو سريعا إلى مكة وخرج رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له ذفران فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار رسول الله- صلى الله عليه وسلم- الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر- رضى الله عنه- فقال فأحسن، ثم قام عمر- رضى الله عنه- فقال فأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله امض لما أمرك الله به، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنواسرائيل لموسى" اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون"ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لوسرت بنا إلى برك الغماد يعنى مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول الله- صلى الله عليه وسلم- خيراً ودعا له بخير ثم قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم"أشيروا على أيها الناس"، وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله: إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا وكان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها

نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسيربهم إلى عدو من بلادهم فلما قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ذلك قال له سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يارسول الله؟ قال"أجل" فقال فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئتك به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أمرك الله فوالذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ماتقربه عينك فسربنا على بركة الله، فسر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: "سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم".[1]

المعنى العام:

بعد أن بين سبحانه وتعالى صفات المؤمنين حقا وما أعده لهم من الدرجات العظيمة، والرزق الكريم، انتقل سبحانه معاتبا بعض المؤمنين من أصحاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ومنكرا عليهم كراهيتهم للقتال، ولقاء العدو، وقد قضى الله أنه لابد منه فهو حق واجب عليك لنصرة دينه وإعلاء كلمته ومع هذا يجادلونك فى ذلك الحق بعد انكشافه وظهوره وهو أن الخير كل الخير فى تلقى النفير لا العير خصوصا وأن الله وعدهم

---

١ - انظر لباب النقول ص (٢٠٣) وتفسير ابن كثير ج٢ ص (٢٨٨)

إحدى الطائفتين وضمن لهم النصر على العدو، وصارت كراهتهم لذلك مثل كراهة من يجذب إلى القتل جذبا عنيفا وهو ينظر إلى أسبابه المحققة.

وقوله" **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ** " يقتضى تشبيه شيء بهذا الإخراج وذكروا فيه وجوها:

الأول: أن النبى- صلى الله عليه وسلم- لما رأى كثرة المشركين يوم بدر وقلة المسلمين قال"من قتل قتيلا فله سلبه ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا ليرغبهم فى القتال، فلما انهزم المشركون قال سعد بن عبادة: يارسول الله إن جماعة من أصحابك وقومك فدوك بأنفسهم، ولم يتأخروا عن القتال جبنا ولا بخلا ببذل مهجهم ولكنهم أشفقوا عليك من أن تغتال فمتى أعطيت هؤلاء ماسميته لهم بقى خلق من المسلمين بغير شيء فأنزل الله تعالى" **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ** " يصنع فيها مايشاء، فأمسك المسلمون عن الطلب وفى أنفس بعضهم شيء من الكراهية.

وأيضا حين خرج الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى القتال يوم بدر كانوا كارهين

لتلك المقاتلة.....فلما قال تعالى" قل الأنفال لله والرسول" كان التقدير أنهم رضوا بهذا الحكم فى الأنفال وإن كانوا كارهين له كما

أخرجك ربك من بيتك بالحق إلى القتال وإن كانوا كارهين لـــه وهـــذا الوجه أحسن الوجوه المذكورة هنا[1].

الثانى: أن يكون التقدير ثبت الحكم بأن الأنفال لله وإن كرهتموه، كمـــا ثبت حكم الله بإخراجك إلى القتال وإن كرهتموه.

الثالث: لما قال تعالى" **أُولَـــئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** " كـــان التقـــدير: أن الحكم بكونهم مؤمنين حق، كما أن حكم الله بإخراجك من بيتك للقتـــال حق.

الرابع: قال الكسائى" الكاف" متعلق بما بعـــده، وهـــو قولـــه تعـــالى" يجادلونك فى الحق" والتقدير" كما أخرجك ربك من بيتك بالحق" علـــى كره فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال ويجادلونك فيه.وفـــى إضافة الإخراج إلى الرب فى قوله" **أَخْرَجَكَ رَبُّكَ** " إشارة إلى أن ذلك كان بوحى منه عزوجل، وإضافة الرب إلى ضميره صـــلى الله عليـــه وسلم فى قوله"ربك"فيه من اللطف مالايخفى، فالذى أخرج المـــصطفى صلى الله عليه وسلم من بيته موطن الأمان والاستقرار إنما هو ربـــه الأعلم بمايصلح أمره وشأنه، ومن ثم قال " بالحق" أى إخراجا متلبـــسا بالحكمة والصواب.

وفى قوله تعالى" كأنما يساقون إلى الموت" أيضا تشبيه مركـــب مثـــل قوله "كما أخرجك ربك"، حيث شبه حالهم فى فرط فـــزعهم ورعـــبهم

---

١ – انظر مفاتيح الغيب ج٧ ص (٤٤٥).

وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يقاد إلى القتل ويجذب إليه جذبا عنيفا ويساق إلى الموت وهو مشاهد أسبابه، ناظر إليها لايشك فيها بجامع تيقن حلول المكروه فى كل. وفيه أيضا إيماء وإشارة إلى أن مجادلتهم كانت لفرط فزعهم ورعبهم لقلة عددهم وكثرة عدوهم.

وقوله تعالى"**وهم ينظرون**" كناية عن جزمهم بالموت والقطع به.

قال تعالى" **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ** ".

علاقة هاتين الايتين بما قبلهما:

بعد أن بين المولى-عز وجل- فزع المؤمنين وجزعهم وقلة صبرهم وقصور الرأى ذكر هنا جميل صنعه- عزوجل- بهم.

المعنى العام:

يأمر الله المؤمنين أن يذكروا فضله عليهم وذلك بذكر وقت وعد الله إياهم أن إحدى الطائفتين لهم لامحالة وهم يتمنون أدنى الطائفتين منزلة وهى الطائفة التى لاحرب ولاضرب ولاسلاح فيها وهى العير لعدم أهبتهم، ولما طبعت عليه النفوس من كراهية خوض غمار الموت، ويريد الله- عزوجل- بما أراد من لقاء العدو أن يحق الحق بكلماته

وآياته، ولو كره المجرمون إحقاق الحق، وإبطال الباطل لأنه سبحانه عزيز لايغلب.

ويلاحظ أن هاتين الآيتين وردتا على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب بالنظر إلى ماسبق من آيات، وذلك لتلفت الآيتان نظر المؤمنين لما فيهما من خير لهم فيتمكن فى نفوسهم الإذعان له تعالى، متمثلا فى طاعة رسوله- صلى الله عليه وسلم- فيما أمر به ونهى عنه فضل تمكن، حيث تبين لهم وجه الحكمة من إيثار تلقى النفير على تلقى العير.

والأمر بتذكر الوقت فى مثل قوله " **وإذ يعدكم** " المقصود منه تذكر ماحدث فيه للمبالغة فى إيجاب التذكر، لأن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ماوقع فيه، فإذا استحضر كان ماوقع فيه حاضرا مفصلا كأنه مشاهد عيانا، والتعبير بالمضارع "يعدكم" لاستحضار الصورة العجيبة.

وفى قوله" غير ذات الشوكة" استعارة تصريحية أصلية حيث شبه الحدة والقوة بواحدة الشوك واستعارها لها.

وعبر فى جانب المؤمنين ب"تودون"وفى جانب الله تعالى ب"يريد" للإشارة إلى الفرق بين المرادين.

ولا تكرار فى قوله تعالى"**ليحق الحق.....**" مع قوله " ويريد الله أن يحق الحق...."لأن المعنيين متباينان،وذلك أن الأول تمييز بين الإرادتين فالإرادة الأولى مطلقة غير مقيدة بالواقعة الخاصة، والثانية

مقيدة بها كأنه قيل تودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ومن شأن الله تعالى إرادة تحقيق الحق وتمحيق الكفر على الإطلاق، وأما الثانى فلبيان غرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليهم وأنه مانصرهم ولاخذل أعداءهم إلا لهذا الغرض، أو أن المراد بالأول سبب ما وعد به فى هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء، والمراد بالثانى تقوية القرآن والدين ونصرة هذه الشريعة، لأن الذى وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين كان سببا لعزة الدين وقوته، ولهذا قرنه بقوله تعالى " **وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ** " الذى هو الشرك، وذلك فى مقابلة" الحق" الذى هو الدين واللإيمان.(١)

قال تعالى: " **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ*وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ".

علاقة الآيتين بماقبلها:

لما بين – تعالى– فى الآية الأولى أنه يحق الحق ويبطل الباطل بين أنه تعالى نصرهم عند الاستغاثة.

---

١ – نفسه ص (٤٤٨).

المعنى العام:

يقول الله-عز وجل- لرسوله والمؤمنين حينما رأوا كثرة عدوهم وكانوا ألفا وقلة عددهم وكانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلا وكان العدو على الماء وهم على غير ماء وقد اشتد خوفهم، يقول -عز وجل- حينئذ اذكروا(**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ**) وتطلبون منه المعونة والنصر فاستجاب لكم وأمدكم وأنزل لكم ألفا من الملائكة مردفين، وراء كل ملك ملك، وماجعل الله الإمداد بالملائكة إلابشرى لكم أيها المؤمنون بالنصر ولتطمئن بالإمداد قلوبكم وتسكن إليه نفوسكم وتزول عنكم الوسوسة، وماالنصر إلامن عند الله فى الحقيقة لأنه الذى خلق أسباب النصر فهو- عز وجل- عزيز لا يغالب حكيم فى كل ما فعل وقدر من إمدادكم وقهر عدوكم. وعبر بالمضارع فى قوله"**تستغيثون**" لحكاية الحال الماضية، واستحضار صورتها العجيبة وعدد الملائكة هنا وفى آل عمران مختلف لأن المراد بالألف هنا الذين كانوا فى المقدمة أو الساقة أو وجوههم وأعيانهم أو من قاتل منهم، وفى آل عمران العدد الذى نزل للنصرة، أو أن الله أمد المؤمنين بألف يوم بدر كما فى سورة الأنفال ثم زاد عددهم إلى ثلاثة آلاف ثم زاد سبحانه العدد إلى خمسة آلاف بعد أن صبر المؤمنون واتقوا وأتاهم المشركون من فورهم من مكة حيث استنفرهم أبو سفيان لإنقاذ العير بناء على وعده سبحانه وتعالى بذلك إن هم صبروا واتقوا وأتاهم المشركون من فورهم.

ويقول رأى آخر إن العدد الموعود به فى آل عمران كان خاصا بغزوة أحد فلا إشكال ولاتعارض، وبناء عليه فلا حاجة إلى التوفيق، وإن كان ظاهر الآيات فى سورة آل عمران أن العدد الموعود به من الثلاثة آلاف والخمسة آلاف متعلق بغزوة بدر، لتعلق قوله سبحانه "إذ تقول للمؤمنين" بقوله سبحانه فى الآية السابقة " ولقد نصركم الله ببدر"[1].

وفى قوله- تعالى- " **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى**" قصر للفعل وهو الجعل على بعض معمولاته وهو المفعول لأجله لبيان أن الأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وإنما التأثير مختص به عز وجل- ليثق به المؤمنون ولايقنطوا عند فقدان أسبابه.

والضمير فى قوله "**ولتطمئن به**" يعود إلى الإمداد المستفاد من قوله سبحانه "أنى ممدكم" أى بإمدادكم، والآية استئناف قصد به بيان السبب الذى من أجله أمدهم سبحانه بالملائكة وهذا السبب مندرج فى سلك بيان ما امتن الله به عليهم لأن إخبارهم بأن الغرض من الإمداد هو إدخال السرور عليهم ببشرى النصر وباطمئنان القلب نعمة تؤدى إلى ثباتهم فى القتال.

وسر التكرار واختلاف الأسلوب بين آية الأنفال هنا، وآية آل عمران، حيث يقول سبحانه فى آل عمران" **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** "

---

١ - انظر فى ذلك تفسير ابن كثير ج٢ ص (٢٩٠) وأبى السعود.

"قال الكرمانى موجها الاختلاف فى التعبير وسر التكرار فى قوله" **وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم**"ههنا بإثبات "لكم" وتأخير"به" وحذف "**إن الله**" وفى الأنفال بحذف "لكم" وتقديم" به" وإثبات" إن الله" لأن البشرى هنا للمخاطبين فبين وقال لكم وفي الأنفال قد تقدم " لكم" فى قوله " فاستجاب" فاكتفى بذلك، وقدم "قلوبكم" هنا واخر "به" ازدواجا فى الغائبين فقال " **وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ** " وحذف "إن" ههنا لأن مافى الأنفال قصة بدر وهى سابقة على مافى هذه السورة فإنها فى قصة أحد وأخبر هناك بأن الله عزيز حكيم فاستقرالخبر وجعله فى هذه السورة صفة لأن الخبر قد سبق[1].

وفصلت جملة" **إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** " عما قبلها لشبه كمال الاتصال لوقوعها جوابا لسؤال نشأ من سابقتها، كأنه قيل لم كان النصر من عند الله – عز وجل– لاغير، فقيل لأنه عزيز لا يغالب فى حكمه، حكيم يفعل ما فيه المصلحة.

يقول الله تعالى: " **إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ**

---

١ – البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ص (٦٤).

وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ".

علاقة الآيات بما قبلها:

بعد أن ذكر سبحانه عباده المؤمنين بوقت استغاثتهم التى ترتب عليها إمدادهم بالملائكة لتبشيرهم بالنصر وللربط على قلوبهم أراد سبحانه أن يذكرهم بوجوه ذلك النصر وهى ستة أنواع ذكرت فى هذه الآيات.

المعنى العام:

بعد أن ذكر الله- سبحانه وتعالى- أنه استجاب للمؤمنين دعاءهم ووعدهم بالنصر فقال تعالى" **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ** " ذكر عقبيه وجوه النصر وأنواعه:

الأول: قوله تعالى" **إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ** " أى من قبل الله، لأن كل نوم ونعاس لايحصل إلا من قبل الله تعالى، وبخاصة إذا كان المقام مقام خوف وترقب، فالخائف من عدوه الخوف الشديد على نفسه وأهله لايأخذه النوم، وإذا نام الخائفون أمنوا، فصار حصول النوم لهم فى وقت الخوف الشديد يدل على إزالة الخوف وحصول الأمن.

وكان سبب خوف المسلمين آنذاك قلة عددهم، وكثرة الكفار والأهبة والآلة والعدة للكافرين وقلتها للمؤمنين، وأيضا العطش الشديد فلولا هذا

النعاس وحصول الاستراحة حتى تمكنوا فى اليوم الثانى من القتال لما تم الظفر، وكون النعاس نعمة فى حقهم أنهم ما ناموا نوما عميقا يتمكن العدو منهم بل كان نعاسا يحصل لهم زوال الإعياء والتعب.

وأيضا غشيهم هذا النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم، وحصول النعاس للجمع العظيم فى الخوف الشديد أمر خارق للعادة، قال صاحب الكشاف: وقرىء "أمنة" بسكون الميم، ونظير، أَمِنَ أَمَنَةً- حيى حياة، ونظير: أَمِنَ أَمْنَةً- رَحِمَ رَحْمَةً، قال ابن عباس: النعاس فى القتال أمنة من الله، وفى الصلاة وسوسة من الشيطان[1]

وعبر بالمضارع فى (يغشيكم) وما عطف عليه[وينزل- ليطهركم- ويذهب- وليربط- ويثبت لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة.

النوع الثانى من أنواع نعم الله تعالى التى أنعم بها على المؤمنين آنذاك، قوله تعالى " **وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ** " ولاشبهة أن المراد منه المطر، وفى الخبر أن القوم سبقوا إلى موضع الماء واستولوا عليه، وطمعوا لهذا السبب أن تكون لهم الغلبة، وعطش المؤمنون وخافوا وأعوزهم الماء للشرب والطهارة واكثرهم احتلموا وأجنبوا، وانصاف إلى أن ذلك الموضع كان رملا

---

١ - مفاتيح الغيب ج٧ ص (٤٥٥)

تغوص فيه الأرجل ويرتفع منه الغبار الكثير، وكان الخوف حاصلا فى قلوبهم، بسبب كثرة العدو وسبب كثرة آلاتهم وأدواتهم.

فلما أنزل الله تعالى ذلك المطر صار ذلك دليلا على حصول النصرة والظفرة وعظمت النعمة به....."

وذلك بزوال العطش، والاغتسال من ذلك الماء، وزالت الجنابة عنهم، وذهب عنهم- أيضا- رجز الشيطان ووساوسه.

نعم كانت تغشية النعاس لهم نعمة وأمنة منه سبحانه وكذلك إنزال المطر عليهم كان كرما منه وفضلا.

وقد ذكر صاحب الكشاف وجه التجوز الذى يجوز معه أن يكون أمنة مفعولا لأجله على قراءة يغشاكم النعاس فقال: فإن قلت هل يجوز أن ينتصب على أن الأمنة للنعاس الذى هو فاعل يغشاكم أى يغشاكم النعاس لأمنة على أن إسناد الأمن إلى النعاس إسناد مجازى وهو لأصحاب النعاس على الحقيقة(فهو من قبيل أنبت الربيع البقل) أو على أنه أنامكم فى وقت كان من حق النعاس فى مثل ذلك الوقت أن لايقدم على غشيانكم وإنما غشيكم أمنة حاصلة من الله لولاها لم يغشيكم على طريقة التمثيل: فالكلام من قبيل الاستعارة التمثيلية حيث شبه النوم فى غشيانه للنائمين بإنسان قد دهم عدوه لأمنه من غائلة ذلك العدو.

وقدم الجار والمجرور على المفعول فى " وينزل عليكم" وقوله "ويذهب عنكم" للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، وليتمكن المؤخر عند وروده فى النفس فضل تمكن لأنه أتى بعد تشويق له.

والنوع الثالث من النعم المذكورة فى هذه الآية: قوله تعالى" **وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ**"

والمراد أن بسبب نزول هذا المطرقويت قلوبهم وزال الخوف والفزع عنهم ومعنى الربط فى اللغة الشد، ويقال لكل من صبر على أمر ربط قلبه عليه، كأنه حبس قلبه عن أن يضطرب.

وكلمة" **عَلَى** " تفيد الاستعلاء، فالمعنى أن القلوب امتلأت من ذلك الربط كأنه علا عليها وارتفع فوقها.

والنوع الرابع: من النعم المذكورة فى هذه الآية: قوله تعالى: " **وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ**" أى أن المطر لبد ذلك الرمل وصيره بحيث لاتغوص أرجلهم فيه، فقدروا على المشى عليه كيف أرادوا، وعلى هذا التقدير فالضمير فى قوله تعالى"به" عائد إلى المطر.

أو المراد أن ربط قلوبهم أوجب ثبات أقدامه، لأن من كان قلبه ضعيفا فر ولم يقف، فلما قوى الله تعالى قلوبهم لاجرم ثبت أقدامهم، وعلى هذا التقدير فالضمير فى قوله تعالى "به" عائد إلى الربط.

النوع الخامس من النعم المذكورة هنا: قوله تعالى" **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ** " أى أنى معكم بالعون والنصر فثبتوا الذين آمنوا بالإعانة والتبشير وقووا قلوبهم وقولوا لهم يقول ربكم سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب والخوف فقاتلوا مع المؤمنين واضربوا رءوس الكفار وهاماتهم واضربوا كل أصابع أيديهم وأرجلهم وكل مفصل منهم، ذلك العقاب بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله وخالفوا دينه ومن يشاقق الله ورسوله يعاقبه الله فإنه شديد العقاب، ثم خاطب الكفار بقوله، ذلكم القتل والأسر العذاب العاجل فذقوه مع العذاب الآجل فى الآخرة.

وقد إلتفت سبحانه من خطابهم بتذكير نعمه إلى خطاب نبيه- صلى الله عليه وسلم- فقال "إذ يوحى ربك....إلخ"، كما أنه- سبحانه- أتى بلفظ الربوبية وأضافه إلى ضميره- صلى الله عليه وسلم- فقال "ربك" لتشريفه والتنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام،وترتب قوله تعالى"**فثبتوا الذين آمنوا** على قوله تعالى" أنى معكم" ومن ثم فيه شبه لف ونشر مرتب يعلم مما سبق فى الإعراب، وقد فسرت المعية بقوله تعالى" سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب" وفسر قوله سبحانه" **فثبتوا الذين آمنوا**" بقوله تعالى" **فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**"

حيث تبين به كيفية التثبيت، وكرر الأمر بالضرب للاعتناء بشأنه والحث عليه والمبالغة فيه تنكيلا بالعدو واستئصالا لشأفته وخصت الهامات والأعناق والأصابع بالضرب لأن ضربها أبلغ فى هزيمة العدو وفى الأثخان فى القتل لأن ضرب الأعناق فما فوقها يزهق الأرواح ويطيح بالأبدان وضرب البنان يشل العدو ويخبله ويطيح بالسلاح الذى فى يده فيصير العدو أعزل يساق إلى القتل أو الأسر وليس معنى فوق الأعناق أن الأعناق لاتضرب لأن فوق بمعنى على أو على أن المعنى الأعناق فما فوق مثل قوله تعالى فى سورة النساء "**فإن كن نساء فوق اثنتين**" أى اثنتين فما فوق للإجماع على أن ميراث الاثنين كميراث مازاد عليهما الثلثان

واختلقوا فى كيفية تثبيت الملائكة للمؤمنين، فقيل: إنهم عرَّفوا الرسول- صلى الله عليه وسلم- أن الله ناصر المؤمنين والرسول عرَّف المؤمنين ذلك فهذا هو التثبيت.

وقيل: إن الملائكة كانوا يتشبهون بصور رجال من معارفهم وكانوا يمدونهم بالنصر والفتح والظفر.

ولما ذكر الله- تعالى- هذه الوجوه الكثيرة من النعم على المسلمين، قال سبحانه" **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ** " أى أنه تعالى ألقاهم فى الخزى والنكال من هذه الوجوه الكثيرة بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله.

قال الزجاج: " **شَآقُّواْ اللّهَ** " مجاز بالحذف، والمعنى: شاقوا أولياء الله ودين الله، وأتى باسم الإشارة للبعيد فى قوله "**ذلك بأنهم**.....إلخ" للإيذان ببعد درجته فى الشدة والفظاعة.

ثم قال تعالى" **وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** " أى أن هذا الذى نزل بهم فى ذلك اليوم شىء قليل مما أعده الله لهم من العقاب فى القيامة، والمقصود منه الزجر عن الكفر والتهديد عليه.

وفى هذه الآية أظهر فى مقام الإضمار، لأنه من الممكن أن يقال فى غير القرآن "ومن يشاققهما" لكنه أظهر لتربية المهابة وإظهار كمال شناعة ما اجترءوا عليه.

ولمَّا كان عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة يسيرا سُمِّى ماأصابهم منه ذوقا لأن الذوق يعرف به الطعم اليسير فقال تعالى" **ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ** " فعاجل ماحصل لهم من الآلام فى الدنيا كالذوق القليل بالنسبة إلى الأمر العظيم المعد لهم فى الآخرة.

وفى قوله" **فَذُوقُوهُ** " استعارة تصريحية أو مكنية، وهو اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه للتهديد والتنغيص عليهم بما كان من قتلهم وأسرهم والتنكيل بهم لأنه يذكرهم بمرارة القتل والأسر والهزيمة، الأمر الذى يغيظهم ويزيدهم غما على غم وحزنا على حزن، وقد أظهر لفظ " للكافرين" فى موضع الإضمار لتسجيل الكفر عليهم وللتشنيع عليهم به ولبيان علة الحكم.

قال تعالى" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ "

علاقة هذه الآية بماقبلها:

بعد أن أخبر سبحانه وتعالى أنه سيلقى فى قلوب الكافرين الرعب، وأمر المؤمنين بضرب أعناقهم وبنانهم، وبين سبب ماحاق بهم توجه سبحانه إلى المؤمنين محرضا لهم على الصبر عند ملاقاة عدوهم وعدم الفرار، ومبينا جزاء من ولى دبره للكافرين.

المعنى العام:

بعد أن أخبر المولى عزوجل عن سبب ما حاق بالكافرين من التوبيخ لهم والتشفى منهم نادى سبحانه المؤمنين آمرا لهم بعدم الفرار يوم اللقاء مبينا جزاء من ولى دبره للكافرين وفرَّ وانهزم فقد رجع بغضب من الله عظيم لايقادر قدره ومأواه جهنم وبئس المصير والمرجع هى، ولايباح الفرار والانهزام فى حال من الأحوال إلا فى حال أن يكون الفار متحرفا للقتال وكارا بعد فرار أو متحيزا ومنضما إلى فئة من المسلمين ليقاتل معهم العدو قربت تلك الفئة عنه أو بعدت، وهذا يدل على أن الفرار من الزحف على غير المتحرف أو المتحيز حرام ومن الكبائر بدليل حديث" اجتنبوا السبع الموبقات" وفيه: التولى يوم الزحف

وهذا إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف وإلا فلا حرمة وإن كان الأفضل الثبات وعدم الفرار.

وخطاب الله سبحانه للمؤمنين بوصف الإيمان للحض على الامتثال وعدم مقارفة النهى.

وفى قوله(**زَحْفاً**) تشبيه تمثيلى شبه فيه حال الجيش الدهم ومشيه نحو العدو ورؤيته كأنه يمشى ببطء وإن كان فى نفس الأمر سريعا،شبه بحال الصبى فى زحفه على أسته قليلا قليلا بجامع البطء.

وفى قوله(**فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ**) كناية أريدبها صفة، فقد كنى بتولى الأدبار عن الانهزام لأنه لازم له وقد نهى عن الفرار بطريق الأولى على أبلغ وجه وآكده على حد قوله " لا تقربوا الزنى"

وقوله تعالى" **وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ** " شرط مقيد وجزاء مشعر ببشاعة فعل الشرط ونكارته وأنه من الكبائر الموبقة، وعبر بلفظ "الأدبار" و"الدبر" بدلا من لفظ الظهور والظهر لوقوع الدبار والدبر موقعهما من الفصاحة والبلاغة لبشاعة تمكين الغير من الدبر ولأن التولى يوم الزحف فيه العار والشنار.

وفى إيقاع البوء موقع جواب الشرط الذى هو التولية مقرونا بذكر المأوى والمصير من الجزالة مالا مزيد عليه، فقد كان السياق يقتضى أن يقال " ومن يولهم يومئذ دبره فقد تولى بغضب من الله".

قال الله تعالى" فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "

علاقة الآية بما قبلها:

بعد أن بين سبحانه تعالى حرمة الفرار يوم الزحف بشرطه ونهى عنه عاد سبحانه إلى بقية أحكام الوقعة وأحوالها وتقرير ماسبق فيها.

المعنى العام:

بعد أن بين سبحانه وتعالى- حرمة الفرار يوم الزحف بشرطه ونهى عنه وبين جزاء من فر لاستدعاء المناسبة واقتضاء المقام عاد سبحانه إلى بيان قصة بدر مبينا فضله عليهم فى قتله الأعداء وعلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فى رميه سبحانه الحصباء، وأنه هو سبحانه الذى قتل الأعداء ورمى الحصباء حقيقة؛ وقيل: إن المعنى إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم لما روى أن أصحاب رسول الله- صلى الله عليه سلم- لما صدروا عن بدر ذَكَرَ كل واحد منهم ما فعل قتلت كذا فعلت كذا فنزلت الآية إعلاما بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء وأن العبد إنما يشارك بكسبه وقصره وكلاهما مخلوق لله تعالى أيضا وهذه الآية ترد على المعتزلة القائلين بأن أفعال العباد مخلوقة لهم، وهى حجة لمذهب أهل السنة القائلين بأن العبد لا يخلق أفعال نفسه الاختيارية، وهى- أيضا- حجة على القدرية.

وقوله تعالى: " **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى** " كصدر الآية فى المعنى والحجة من حيث إسناد الفعل حقيقة إلى الله- تعالى-،أى أن القبضة من الحصباء التى رميتها، فأنت مارميتها فى الحقيقة، لأن رميك لايبلغ أثره إلا مايبلغه رمى سائر البشر، ولكن الله رماها حيث نفذ أجزاء ذلك التراب وأوصلها إلى عيونهم،فصورة الرمية صدرت من الرسول- عليه الصلاة والسلام- وأثرها إنما صدر من الله، فلهذا صح فيه النفى والإثبات، أو المثبت الإرسال والمنفى إزهاق الروح أو المنفى إلقاء الرعب والمثبت الحصباء.(١)

وجاء الفعل "**رميت**" مجردا من المفعول، فلم يقل: ومارميت الحصباء إذ رميتها لأنه لم يتعلق بذكر المفعول غرض، وإنما المقصود الأصلى بيان حال الرمى نفيا وإثباتا إذ هو الذى ظهر منه ماظهر وهو المنشأ لتغيير المرمى به فى نفسه وتاثيره إلى حيث أصاب عينى كل واحد.وأيضا خالف بين الأسلوبين فى "**ومارميت**" وقوله "**فلم تقتلوهم**" حيث لم يقل: " فلم تقتلوهم إذ قتلتموهم"، ولم يقل: "وما رميت ولكن الله رمى" للمبالغة فى شأن الرمى.

وفيه أيضا التفات بخطاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- اعتناء بشأنه لأنه محل العناية والتكريم ولايظن أحد أن النبى- صلى الله عليه وسلم- صدر منه مثلما صدر من المؤمنين فخرا، بل الآية امتنان على

---

١ - انظر الكشاف ج٢ ص (١٥٠).

المؤمنين وعتاب لهم، وهى امتنان على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لاغيرثم بين سبحانه وتعالى علة قتل الكافرين ورميهم بالحصباء فقال "وليبلى المؤنين منه بلاء حسنا"،..

وفصل جملة " **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** " عما قبلها لشبه كمال الاتصال لأنها تعليل لما قبلها، وأكدها لتقرير الحكم ودفع توهم الإنكار، وختم بها الآية للتهديد وتأكيد الوعيد. لئلا يغتر العبد بظواهر الأمور، ويعلم أن الخالق مطلع على كل مافى الضمائر والقلوب.

ثم قال تعالى مشيرا إلى القتل والرمى أو البلاء الحسن" **ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ**"، وعبر باسم الإشارة " ذلكم" الذى هو للبعيد للإشارة إلى عظم هذه الأمور من قتل ورمى أوبلاء حسن وصعوبتها ومشقتها، مضيفا إليها توهين كيد الكافرين بجعله غير مجد لهم ولا مفيد لأن الله تعالى فوق مكرهم وكيدهم، أو بإطلاع المؤمنين على عوراتهم، وإلقاء الرعب فى قلوبهم، وتفريق كلمتهم، ونقض ما أبرموا بسبب اختلاف عزائمهم.

قال تعالى: **إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ** ".

علاقة الآيات بما قبلها:

بعد أن بين سبحانه وتعالى أن ماحدث من قتل الكافرين بالحصباء مقصود به إبلاءالمؤمنين بلاء حسنا، وبعد أن أخبر أنه تعالى موهن كيد الكافرين بحيث لايفيدهم شيئا ولا يجدهم بعد أن بين كل ذلك وأنه كان منه لامنهم ليرجعهم إليه فى السراء والضراء قال" إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح....إلخ".

المعنى العام:

بعد أن بين- عزوجل- أن ماحصل من القتل والأسر والنصر كان منه- سبحانه- ليبلى المؤمنين بلاء حسنا، وبعد أن أخبر أنه تعالى موهن كيد الكافرين خاطب أهل مكة بطريق الالتفات متهكما بهم ومتوعدا لهم بعود الكرة عليهم مرة أخرى إن هم عادوا إلى عتوهم ونفورهم فقال تعالى "إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح، وإن تنتهوا فهو خير لكم، وإن تعودوا نعد، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولوكثرت، وأن الله مع المؤمنين" أى إن تستنصروا لأعلى الجندين وأهداهما فقد جاءكم الفتح حيث نصر أعلاهما وأهداهما، فالتهكم فى مجىء الفتح، أو فقد جاءكم الهلاك والذلة، فالتهكم فى نفس الفتح،وإن تنتهوا عن الحرب والمعاداة للرسول فهو خير لكم،وإن تعودوا للحرب نعد للنصر له - صلى الله عليه وسلم- والتعذيب لكم والقتل والأسر كما كان الحال يوم

بدر ولن تفيدكم جماعتكم شيئا ولوكانت كثيرة، واعلموا أن الله مع المؤمنين دائما بالتأييد والنصر والإمداد والعون.

وإن كان الخطاب للمؤمنين كان المعنى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر وإن تنتهوا عن التكاسل والرغبة عما يرغب عنه الرسول- صلى الله عليه وسلم- فهو خير لكم وإن تعودوا لمثل ذلك نعد إلى توبيخكم

وقيل: إن الخطاب فى الآية بعضه للمؤمنين وبعضه للكافرين، فقوله" إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح" خطاب للمؤمنين بالامتنان، ومابعد ذلك خطاب للكافرين على حد قوله" يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين".

وبعد أن بين- عزوجل- أنه موهن كيد الكافرين، وأنه مع المؤمنين ليبلغ الدين كماله وتمامه، خاطب المؤمنين آمرا بطاعته- سبحانه- وطاعة رسوله- صلى الله عليه وسلم- وعدم توليهم عنه وألا يتشبهوا بمن لايؤمن برسول الله- صلى الله عليه وسلم- وفى قولهم سمعنا وهم لايسمعون فقال"يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون"، فالمولى – عز وجل- يجدد لهم الأمر بطاعته- سبحانه- وطاعة رسوله- صلى الله عليه وسلم- وينهاهم عن التولى عنه- صلى الله عليه وسلم-، وقد ذكر- عز وجل- الأمر بطاعته تعالى- تمهيدا

وتنبيها على أن طاعة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- هى طاعة لله- تعالى- وأن التولى عن رسوله تولى عنه- سبحانه-، ومن ثم أفرد الضميرفى قوله" ولا تولوا عنه" للإشارة إلى هذا المعنى وهو أن طاعة الرسول طاعة لله.

ويجوز أن يكون إفراد الضمير هنا لعوده إلى الجهاد المفهوم من السياق أو إلى الأمر الذى دل عليه" أطيعوا".

وبدأ قوله- تعالى- "**يأيها الذين آمنوا**.....إلخ" بجملة النداء التى تتضمن فنونا من التوكيد: منها استعمال حرف النداء " يا " الذى للبعيد للإشارة إلى أن الذين آمنوا ينادون لأمر مهم وخطير، فليجمعوا قلوبهم وعقولهم لتلقيه ولولا هذه الإشارة لجيء بـ" أى" أو الهمزة،لأن الله قريب إلى كل منادى.

وقد قال النحاة: أن "يا" تستعمل فى نداء البعيد، أو مَنْ يُنَزَّل منزلته من الساهى والغافل، وقال ابن هشام: وقد ينادى بها القريب توكيدا.[1]

ولم يقع فى القرآن نداء بـ" أى" ولم يقع فيه كذلك نداء بالهمزة، وإنما استعمل فى النداء"يا" وحدها دون غيرها، لأنها أندى وأنفذ ولاينادى اسم الله إلابها، وكذلك لا يقع فى نداء " أيتها" سواها، ولا يقدر عند

---

١ - انظر قطر الندى لابن هشام ص (٢٨١) وشذوذ الذهب فى معرفة كلام العرب ص (١١٠) وما بعدها.

الحذف غيرها نحو قوله تعالى فى سورة يوسف " يوسف أعرض عن هذا "

قال الزمخشرى" وتفيد ياءٌ التوكيدَ المؤذن بأنَّ الخطاب الذى يتلوه معنىٌّ به جدا.[1]

وقال البلاغيون: وإنما يقول الداعى فى دعائه: يارب، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وأسمع به وأبصر به، استقصارا منه لنفسه، واستبعادا لها من مظان الزلفى. وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقربين، هضما لنفسه، وإقرارا عليها بالتفريط فى جنب الله ومن فنون التوكيد- أيضا- فى جملة النداء: لفظ "أى" وهو اسم مبهم يفتقد إلى موضحه، ويكون صلة لنداء مافيه الألف واللام، فإذا أردت نداء الرجل، وكل ماهو معرف ب" أل" فإنك لا تستطيع أن تدخل عليها حرف النداء، وحينئذ تستعين ب"أى" هذه، فتقول" يا أيها الرجل، ويأتى بعد"أى" اسم يوضح إبهامه، ويكون وصفا ل"أى" فحرف النداء فى جملتنا داخل على "أى" وعامل فيه، ولفظ "الذين" وصف له موضح لإبهامه، وفى التوضيح بعد الإبهام لون من التأكيد والتقرير، وذلك لتشوف السامع مع الإبهام إلى مايزيله ويكشف غموضه، فإذا جاء الموضح، قر فى النفس وتمكن منها.

---

١ - انظر: من أسرار التعبير القرآنى د / محمد أبو موسى ص (٤٣٩).

هذه أيضا من فنون التوكيد فى جملة النداء هنا: هذه الهاء الممتدة بين "أى" والوصف، تعاضد حرف النداء وتقويه، فتزيد هذه الطريقة من النداء قوة ووكادة.

وقد أجاب الزمخشرى عن السر البلاغى فى تردد هذه الطريقة فى نداء القرآن بكثرة، فقال"......ذلك لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة لأن كل ماينادى الله له عباده من أوامره، ونواهيه، وعظاته، وزواجره، ووعده، ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه، أمور عظام، وخطوب جسام ومعان،عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال بأن ينادوا بالآكد الأبلغ"

وقوله تعالى" **وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ** " جملة حالية ليست قيدا للأمر بطاعة الله ورسوله بل مؤكدة لوجوب الامتثال مطلقا، ومثلها فى قوله تعالى فى سورة البقرة" **فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون**"، فلا تفيد تقييد الطاعة بحالة السماع كما فى قوله تعالى فى سورة النساء" **فلا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى**"لأن الله تعالى أمر بطاعة رسوله أمرا عاما مطلقا على كل حال، وفى كل حين ثم قال- سبحانه- مؤكدا لذلك" **ولاتكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون**"، أى ولاتتشبهوا أيها المؤمنون الصادقون بالمنافقين الكاذبين ولاباليهود ولا المشركين الذين يدعون السماع والحال أنهم لايسمعون الحق والآيات سماع تفهم وتدبر وإذعان

حيث إنهم لم يناصعوا للحق ولم يصدقوا بالآيات،فأشبه سماعهم سماع من لايَصدق.

وجاءت الجملة المنفية فعلها مضارع" **وهم لايسمعون**" والجملة المثبتة فعلها ماض" قالوا سمعنا"، لأن لفظ المضى لايدل على استمرار الحال بخلاف نفى المضارع فكما يدل إثباته على استمرار الحال فى قولهم "هو يعطى ويمنع، كذلك يجىء نفيه، وجاء حرف النفى "لا" لأنها أوسع فى نفى المضارع من "ما" وأدل على انتفاء السماع فى المستقبل أى هو ممن لا يقبل أن يسمع.[1]

يقول- عزوجل- "**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ*وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**".

علاقة الآيتين بما قبلهما:

بعد ان أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بطاعة الله ورسوله وعدم التشبه بالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون من المنافقين والكافرين أخبر- عزوجل- أن شر الحيوان الذى يدب على وجه الأرض الصم البكم، فجمع بين هؤلاء وبين جميع الدواب وأخبر أنهم سر الحيوان مطلقا، فهذا استئناف مسوق لبيان سوء حال المشبه بهم مبالغة فى التحذير، وتقريرا للنهى إثر تقرير

---

١ انظر تفسير البحر المحيط لأبى حيان ج٤ ص (٤٧٩) وما بعدها.

المعنى العام:

لما أخبر تعالى أن هؤلاء المشبه بهم لا يسمعون أخبر أن شرَّ الحيوان الذى يدب على وجه الأرض الصم البكم فجمع بين هؤلاء وبين جميع الدواب، وأخبر أنهم شر الحيوان مطلقا وذلك ليبغض المؤمنين فى التشبه بهؤلاء ببيان على النهى لهم فقال سبحانه " **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ**" على طريق الاستئناف لبيان كمال سوء حال المشبه بهم مبالغة فى التقرير للنهى عن التولى ومبالغة كذلك فى التحذير من التشبه بالكفار واختلفوا فى الدواب، فقيل: شبههم بالدواب لجهلهم وعدولهم عن الانتفاع بما يقولون ويقال لهم، ولذلك وصفهم بالصم والبكم وبأنهم لايعقلون.

وقيل: بل هم من الدواب لأنه اسم لما دب على الأرض، ولم يذكره فى معرض التشبيه، بل وصفهم بصفة تليق بهم على طريقة الذم، كما يقال لمن لايفهم الكلام هو شبح وجسد وطلل على جهة الذم.

وإن أخس من يدب على الأرض، وأخس من كل خسيس فى حكم الله وقضائه الصم الذين لا يسمعون الحق الذى ينطق به رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وتنادى به آيات الله- سبحانه وتعالى- والبكم الذين لا ينطقون بذلك الحق الذى سمعوه وهم الذين لا يعقلون شيئا ولا يفهمون.

وقد قدم- سبحانه- وصفهم بالصمم على وصفهم بالبكم لأن عدم النطق بالحق والسكوت عنه من فروع عدم سمعهم له، كما أن النطق به من

فروع سماعه، ثم وصفهم بعدم التعقل تحقيقا لكمال سوء حـــالهم، لأن الأصم الأبكم إذا كان له عقل ربما يفهم بعض الأمور ويفهمها غيـــره بالإشارة ويهتدى بذلك إلى بعض مطالبه، وأما إذا كان فاقد العقل أيضا فهو الغاية فى الشَّرِّيَّة وسوء الحال.

وقد أفادت الآية بأسلوبها حصر الشرية فيهم، والحصر جاء فى تعريف اسم إن وخبرها، وأكد ذلك بأن وتحقق بفقدان العقل.

ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك " **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ** " مبينا أنه لا خير فيهم ولا أمل يرجـــى منهم، أى ولو علم الله بعلمه الأزلى القديم أن فيهم شـــيئا مـــن الخيـــر يساعدهم على قبول الحق لأسمعهم الحجج والبـــراهين ســـماع تعلـــيم وتفهيم، ولو أسمعهم بعد أن علم أنه لاخير فيهم لم ينتفعوا بها، ولتولوا وهم معرضون. وجاءت جملة "وهم معرضون" حالا، وصاحب الحال" واو الجماعة" فى " تولوا" وعليه فالحال مقيدة لعاملها وهو فعل " تولوا" ويصح أن تكون حالا غير مقيدة لوقت التولى بـــل للإفـــادة إلـــى أن الأعراض طبيعتهم وديدنهم فلا غرابة فـــى تـــوليهم وإعراضـــهم وإن سمعوا الحجج والآيات وذلك واضح من الجملة الإسمية التى تفيد الدوام والاستقرار فى الإعراض. وقيل فى معنى الآية " ولوعلم الله فيهم خيرا لأسمعهم كلام الموتى والمراد بهم بنو عبد الداربن قصى لم يسلم منهم إلا مصعب بن عمير وسويد بن حرملة وبنو عبد الدارهم الذين قـــالوا

لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- أَخِي قصيًا فإنه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك فنؤمن بك فبين تعالى أنه لوعلم فيهم خيرا وهو انتفاعهم بقول هؤلاء الأموات لأحياهم حتى يسمعوا كلامهم، ولكنه تعالى علم منهم أنهم لا يقولون هذا الكلام إلا على سبيل العناد والتعنت، وأنه لو أسمعهم الله كلامهم لتولوا عن قبول الحق ولأعرضوا عنه.

وقيل المراد بضمير "هم" فى الآية المنافقون، وقيل أهل الكتاب، "وعن جريح هم المنافقون، وعن الحسن أهل الكتاب"[1].

وجاءت الآية" **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ**.....إلخ" على صورة قياس شرطى اقترانى، فإذا حذف الحد الوسط كانت النتيجة هكذا لو علم الله فيهم خيرا لتولوا، فأول الكلام يقتضى نفى الخير عنهم وآخره يقتضى حصول الخير فيهم. وهذا تناقض، والجواب إما بمنع أن الآية مسوقة للاستدلال، بل لبيان السببية على الأصل فى "لو" فيكون الكلام قد تم عند قولهم لأسمعهم، ويكون قوله **(وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ)** مستأنفا لتأكيد الأول إذ مآله إلى أنه انتفى الإسماع لعدم الخيرية فيهم ولو وقع الإسماع لا تحصل الخيرية فيهم لعدم قابلية المحل وإما تسليم أنه استدلال بقياس اقترانى مستوف شروط الإنتاج لعدم تكرار الحد الوسط. لأن الإسماع الأول غير الثانى فإن المراد بالأول الإسماع الموجب للهداية، والثانى الإسماع المجرد الفرضى، أو لعدم كلية الكبرى لأنها

---

١ - الكشاف ج ٢ ص (١٥١)

مهملة فى قوة الجزئية. وأتى بقوله" لأسمعهم" مطلقا مع أن المعنى لأسمعهم سماع تفهم للإشارة إلى أنهم نزلوا منزلة من لم يسمع أصلا بجعل سماعهم بمنزلة العدم.

قال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ".

علاقة الآيات بما قبلها:

بعد أن بين – عز وجل– أنه لا خير فى الكفار لعدم سماعهم الحق لأنه لاخير فيهم، أمر – سبحانه– المؤمنين بالاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما فيه حياتهم الطيبة فى الدنيا والآخرة، وحذرهم من عدم الاستجابة قبل فوات الأوان بالحيولة من الله بين المرء وقلبه بالموت أو غيره.

المعنى العام:

أمر الله– عزوجل– كل من آمن بالله وصدق برسوله أن يستجيب لله وللرسول– صل الله عليه وسلم– إذا دعاهم لما فيه حياتهم حياة كريمة عزيزة بالجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ولما فيه حياتهم الأبدية بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، واعلموا– أيها المؤمنون– أن الله

يحول بين المرء وقلبه، فهو أقرب إليه من حبل الوريد، واغتنموا الفرصة قبل إدراك المنية، فإنها حائلة بين المرء وقلبه، أو أن الله سبحانه بغير مراد العبد، واتجاهاته فينقض ماعقد عليه العزم وبذلك يحول بينه وبين الكفر إن أراد سبحانه سعادته ويحول بينه وبين الإيمان إن أراد خذلانه.

وقد استنبط أكثر الفقهاء من الآية " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ**....إلخ" وجوب إجابة المصلى للنبى- صلى الله عليه وسلم- إذا دعاه، وأن الصلاة لاتبطل بذلك، والدليل مارواه أبوهريرة- رضى الله عنه- أن النبى- صلى الله عليه وسلم- مر بباب أبى بن كعب فناداه وهو فى الصلاة فعجل فى صلاته، ثم جاء فقال له- صلى الله عليه وسلم- "مامنعك عن إجابتى" قال كنت أصلى قال" ألم تخبر فيما أوحى إلى: " **اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ** " فقال لا جرم لا تدعونى إلا أجيبك، فقال الشافعى: هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أتى به فى الصلاة لا يبطل الصلاة لأمر النبى- صلى الله عليه وسلم- لأبى بالإجابة وإن كان فى الصلاة.

وذهب المالكية إلى أن إجابة النبى- صلى الله عليه وسلم- من مصل لا تبطل الصلاة وهى مستثناه من بطلان الصلاة بالكلام العمد إذا كان لغير إصلاح الصلاة ولو حرفا واحدا....إلخ. وفى قوله تعالى" **إذا دعاكم لما يحييكم**" مجاز مرسل من إطلاق السبب على المسبب لأن الذى يحى هو العقائد والأعمال أو الجهاد وذلك سبب الحياة الأبدية والنعيم الدائم. وذكر

ابن قتيبة أن الكلام من قبيل الاستعارة حيث أريد ب"ما" فى قوله "....**لما يحييكم**" الجهاد الذى يحى الدين.[1]

والاستعارة عند ابن قتيه تشمل "المجاز المرسل" باختلاف علاقاته، ففى بداية حديثة عن الاستعارة يقول: "يقولون: للمطر سماء لأنه من السماء ينزل فيقال: مازلنا نطأ السماء حتى أتيناكم...."[2] وهذا مجاز مرسل علاقته المحلية.

وقوله تعالى" **وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** " يختلف تفسيره بسب اختلاف الناس فى الجير والقدر. أما القائلون بالجبر، فقال الواحدى حكاية عن ابن عباس والضحاك: يحول بين المرء الكافر وطاعته، ويحول بين المرء المطيع ومعصيته، فالسعيد من أسعده الله، والشقى من أضله الله، والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، فإذا أراد المؤمن أن يكفر والله لا يريد كفره حال بينه وبين قلبه.

أما القائلون بالقدر فقالوا: لا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية ماذكرتم وبيانه من وجوه:

الوجه الأول: قال الجُبائى: إن من حال الله بينه وبين الإيمان فهو عاجز وأمر العاجز سفه، ولوجاز ذلك لجاز أن يأمرنا الله بصعود السماء، وقد

---

١ - تأويل مشكل القرآن ص (١٥١).

٢ - نفسه ص (١٣٥).

أجمعوا على أن الزمن لايؤمر بالصلاة قائما، فكيف يجوز ذلك على الله تعالى؟ وقد قال الله تعالى "**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**" [البقرة: ٢٨٦]

وقال فى المُظَاهِر "**فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا** [المجادلة:٤] فأسقط فرض الصوم عمن لا يستطيعه.

الوجه الثانى: أن الله تعالى أمر بالاستجابة لله وللرسول، وذكر هذا الكلام فى معرض الذكر والتحذير عن ترك الإجابة، ولو كان المراد ماذكرتم لكان ذلك عذرا قويا فى ترك الإجابة، ولايكون زجرا عن ترك الإجابة.

الوجه الثالث: أنه تعالى أنزل القرآن ليكون حجة للرسول على الكفار، لا ليكون حجة للكفار على الرسول، ولو كان المعنى ما ذكرتم لصارت هذه الآية من أقوى الدلائل للكفار على الرسول ولقالوا إنه تعالى لما منعنا من الإيمان فكيف يأمرنا به؟

فثبت بهذه الوجوه أنه لايمكن حمل الآية على ما قاله أهل الخير.

قالوا ونحن نذكر فى الآية وجوها (١)

الأول: أن الله تعالى يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بسبب الموت يعنى بذلك أن تبادروا فى الاستجابة فيما ألزمتكم من الجهاد وغيره قبل أن يأتيكم الموت الذى لابد منه ويحول بينكم وبين الطاعة والتوبة.

---

١ انظر مفاتيح الغيب ج٧ ص (٤٧٥)

قال القاضى:ولذلك قال تعالى عقبيه مايدل عليه وهو قوله تعالى " **وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**" والمقصود من هذه الآية الحث على الطاعة قبل نزول الموت الذى يمنع منها.

الثانى: أن المراد أنه تعالى يحول بين المرء وبين مايتمناه ويريده بقلبه، فإن الرجل يحول دون الأمل، فكأنه قال: بادروا إلى الأعمال الصالحة ولاتعتمدوا على مايقع فى قلوبكم من توقع طول البقاء، فإن ذلك غير موثوق به، وإنما حسن إطلاق لفظ" القلب" على الأمانى الحاصلة فى القلب، لأنه تسميه الشيء باسم ظرفه كقولهم: سال الوادى."أى سال الماء فى الوادى لأن الوادى لا يسيل".

الثالث: أن المؤمنين كانوا خائفين من القتال يوم بدر، فكأنه قيل لهم: سارعوا إلى الطاعة ولا تتمنعوا عنها بسبب ماتجدون فى قلوبكم من الضعف والجبن فإن الله تعالى يغير تلك الأحوال فيبدل الضعف بالقوة، والجبن بالشجاعة، لأنه تعالى مقلب القلوب.

الرابع: قال مجاهد: المراد من القلب ههنا العقل، فكان المعنى أنه يحول بين المرء وقلبه، والمعنى فبادروا إلى الأعمال وأنتم تعقلون، فإنكم لا تأمنون زوال العقول التى عند ارتفاعها يبطل التكليف وجعل القلب كناية عن العقل جائز، كما قال تعالى"**إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب**" [ق:٣٧] أى لمن كان له عقل.

الخامس: قال الحسن معناه، أن الله حائل بين المرء وقلبه، والمعنى أن قربه تعالى من عبده أشد من قرب العبد منه، والمقصود منه: التنبيه على أنه تعالى لا يخفى عليه شيء مما فى باطن العبد ومما فى ضميره ونظيره قوله تعالى" **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**" [ق:١٦]

ثم قال تعالى" **وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** " أى واعلموا أنكم إليه تحشرون أى إلى الله ولا تُتركون مُهَملين معطلين، وفيه ترغيب شديد فى العمل وتحذير عن الكسل والغفلة، وفيه قصر صفة على موصوف، فقد قصر الحشر عليه- سبحانه- لايتجاوزه إلى غيره وطريق هذا القصر التقديم. وفى قوله تعالى" **وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** " استعارة تبعية، شبه فيها القرب من الشيء بالحول بينه وبين غيره بجامع الاتصال فى كل، واستعير الحول للقرب واشتق منه يحول بمعنى يقرب.

فالمولى- عزوجل- حذر الانسان أن يحال بينه وبين قلبه، فهو-سبحانه- أقرب إليه من حبل الوريد، ثم حذره من الفتن فقال" **وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** "، والمعنى: واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصة بل تتعدى إليكم جميعا وتصل إلى الصالح والطالح" لأن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده".

وجاز دخول النون المؤكده فى جواب الأمر فى قوله " **لا تصيبن**" لأنه- أى جواب الأمر- جاء بلفظ النهى، ومتى كان كذلك حسن إدخال النون المؤكدة

فى ذلك النهى، وكقولك: انزل عن الدابة لا تطرحك أولا تطرحنك، وكقوله تعالى"**يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وَجنوده**". [النمل:١٨].

أو أن التقدير، واتقوا فتنة تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، إلا أنه جىء بصيغة النهى مبالغة فى نفى اختصاص الفتنة بالظالمين، كأن الفتنة نهيت عن ذلك الاختصاص وقيل لها لا تصيبى الذين ظلموا خاصة، والمراد منه المبالغة فى عدم الاختصاص على سبيل الاستعارة التى صورت الفتنة فى صورة من يعقل فيخاطب.

قال الزمخشرى فى الكشاف" فإن قلت كيف تدخل النون المؤكدة فى جواب الأمر قلت: لأن فيه معنى النهى وحيث كان الأمر بمعنى النهى جاز دخول النون لأن نون التوكيد الثقيلة لا تدخل إلا على فعل النهى أوجواب القسم وقيل: إن لاتصيبن جواب قسم محذوف أى والله إن لم تتقوها لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وقيل إنه نهى بعد أمر كقولك قم لليل لا تفطر غدا،.....إلخ".

ثم قال تعالى " **وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** " والمراد منه: الحث على لزوم الاستقامة خوفا من عقاب الله.

ثم قال- عزوجل- مذكرا المهاجرين بنعمة الإيواء والنصر والرزق من الطيبات" واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون" أى

واذكروا أيها المهاجرون فضل الله عليكم الآن بذكر ماضيكم وقت أن كنتم قبل الهجرة قليلا مستضعفين فى أرض مكة فآواكم إلى المدينة، فصرتم آمنين من شر الكفار، وأيدكم بنصره يوم بدر، ورزقكم من الطيبات فأحل لكم الغنائم بعد أن كانت محرمة على من كان قبلكم من الأمم السابقة، حتى تشتغلوا بالشكر والطاعة، فكيف يليق بكم أن تشتغلوا بالمنازعة والمخاصمة بسبب الأنفال؟

وجاءت الجملة الإسمية فى قوله تعالى"**إذ أنتم قليل**.....إلخ" واقعة موقعها من البلاغة لإفادتها الدوام والاستمرار فهى لبيان استمرار ماكانوا عليه من القلة وما يتبعها من الضعف والخوف.

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.**

علاقة الآيات بماقبلها:

لما ذكر الله- عزوجل- فى الآية السابقة أنه رزقهم من الطيبات نهاهم هنا عن الخيانة.

المعنى العام:

يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله بأن تهملوا فرائضه وتعطلوها وتتعدوا حدوده، ولاتخونوا الرسول- صلى اله عليه وسلم- بأن تتركوا سنته وتخالفوا أمره، ولاتخونوا أماناتكم بإفشاء أسراركم أو نقض عهودكم أو إنكار أماناتكم وأنتم تعلمون أن الخيانة حرام وأن أداء الأمانات واجب، والمراد بالأمانات الأعمال التى ائتمن الله عليها العباد، سميت بذلك لأنها يؤمن معها من منع الحق.

ومن المجاز: خَانَ الدَّلْوَ الكَرَبُ وهو حبل يشد به رأس الدلو وخان المُشْتَارَ السَّبَبُ، والمشتار هو الذى يجنى العسل والسبب الحبل، لأنه إذا انقطع الحبل به فكأنه لم يف له،والخيانة الغدر وإخفاء الشىء.

" **وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** " معناه وأنتم تعلمون أنكم تخونون، يعنى أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لاعن سهو، أو وأنتم علماء تعلمون قبح القبيح، وحسن الحسن، فالجملة حالية وقعت تذييلا لبيان علة النهى وحذف مفعول الفعل"تعلمون" للتعميم، فيقدر وأنتم تعلمون تبعة ذلك، أو وأنتم تعلمون أنكم تخونون ونحو ذلك.

ثم حذر سبحانه المؤمنين من الأموال والأولاد وأن يحملهم حب ذلك على خيانة الله ورسوله فقال تعالى" **وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** " لأن حب المال والأولاد يشغل القلب بالدنيا، وتصير حجابا عن خدمة المولى.

وقدم الأموال على الأولاد فى قوله " **أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** " لأن الفتنة فى المال أكثر منه فى الأولاد، لأن الأموال بها حفظ النفس والأولاد بها حفظ النسل.

وفى العبارة توكيد على جعل الأموال والأولاد فتنة عن طريق القصر بـ"أنما" وهو من قصر الموصوف على صفة.

وفى تنكير لفظ "فتنة" دلالة على التعظيم، أى فتنة عظيمة، لأن الحب الأعمى للمال والأولاد يؤدى إلى الوقوع فى الإثم والعقاب ومخالفة المنعم الوهاب وفى جعل الأموال والأولاد فتنة إما مبالغة بالقصر- كما قلت- أو مجاز مرسل علاقته السببية، لأن المال والأولاد سبب فى الفتنة.

ثم قال " **وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** " تنبيها على أن سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا لأنها أعظم فى الشرف، وأعظم فى الفوز وأعظم فى المدة لأنها تبقى بقاء لا نهاية له، ومن ثم وصف الله الأجر الذى عنده بالعظم وجاء لفظ"أجر" نكرة ليوصف بهذا الوصف العظيم.

ثم رغب- سبحانه وتعالى- فى التقوى التى توجب ترك الميل والهوى فى محبة الأموال والأولاد فقال: " **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**." أى إن تتقوا الله فى ماتأتون وماتذرون ويجعل لكم فرقانا ونورا وهداية تفرقون بها بين الحق والباطل ويستر عنكم سيئاتكم بمحوها ويكفر ذنوبكم بالعفو والتجاوز عنها والله صاحب الفضل العظيم لأنه هو الموفق للطاعة والمثيب

عليها فضلا وكرما منه سبحانه لاوجوبا عليه ولا استحقاقا لعبده لأنه هو المتفضل بالكل-عزوجل-.

وإدخال الشرط فى الحكم فى قوله " **إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً**....." أفاد كون الشرط مستلزما للجزاء، ومجيء أداة الشرط " إن" وهى للشك، للدلالة- والله أعلم- على أن اتقاء الله كما ينبغى لا يكون إلا من القليل كما قال- عزوجل- " **وقليل من عبادى الشكور**"، أو أن الله- تعالى- يعامل العباد فى الجزاء معاملة الشاك، وعليه يخرج قوله تعالى" **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ** " [محمد:٣١].

وجاء لفظ "**فرقانا**" نكرة ومطلقا ليحمل على جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين وبين الكفار، فالله- سبحانه- يخص المؤمنين بالهداية والمعرفة، ويخص قلوبهم وصدورهم بالانشراح، ويزيل الغل والحقد والحسد من قلوبهم ويزيل المكر والخداع عن صدورهم، مع أن المنافق والكافر يكون قلب كل منهما مملوءا بهذه الصفات الخسيسة والأخلاق الذميمة.

كما أنه- سبحانه- يخص المسلمين بالعلو والفتح والنصر والظفر على أعدائهم كما قال- تعالى- "**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**"[المنافقون:٨]،وكما قال- تعالى- "**ليظهره على الدين كله**" [التوبة:٣٣]، وأمر الفاسق والكافر على عكس ذلك كله، ومن ثم كان فرقانا عظيما بين المؤمن وغيره.

وقوله تعالى" **وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** " المراد- والله أعلم- من تكفير السيئات سترها فى الدنيا، ومن المغفرة إزالتها يوم القيامة، ومن ثم فلا تكرار بين **(يكفر ويغفر)**.

وقوله تعالى" **وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** " فيه توكيد للمعنى المفهوم ضمنيا من صدر الآية، لأن من يثيب على التقوى بجعل فرقان، وتكفير للسيئات ومغفرة للذنوب وهو غير ملزم بذلك نحو عبادة الذين خلقوا من أجل عبادته وحده "**وماخلقت الإنس والجن إلا ليعبدون**" يعد هذا منه- سبحانه- تفضلا- وتكرما، فجاء عجز الآية" **وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** " ليؤكد المعنى المفهوم من صدرها وفيه أيضا دلالة على أن من كان بهذه الصفة- أعنى الفضل العظيم- فإنه إذا وعد بشىء وفَىَّ به.

قال تعالى" **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**".

علاقة الآية بما قبلها:

لماذكر- سبحانه- بنعمته فى قوله تعالى" **واذكروا إذ أنتم قليل**...." ذكر هنا نبيه- صلى الله عليه وسلم- النعمة الخاصة به بقوله" **وإذيمكر بك الذين كفروا**....".

المعنى العام:

الآية الكريمة خطاب لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- تذكره بالنعمة الخاصة به بإنجائه من كيد الكافرين، وإخباره بما اجتمع عليه المشركون من المكر به والكيد له فى دارالندوة، حيث اجتمع نفر من قريش ومن أشراف كل قبيلة ليتفقوا على رأى بشأن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وكيفية الخلاص منه، فاعترضهم إبليس عند دخولهم دار الندوة وهو على صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا من أنت قال شيخ من أهل نجد سمعت بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم منى رأى ونصح، قالوا أجل فادخل فدخل معهم، فقال انظروا فى شأن هذا الرجل فقال قائل احبسوه فى وثاق، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة، فقال إبليس: لا مصلحة فيه لأنه يغضب له قومه فتسفك له الدماء، وقال بعضهم أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه لكم، فقال إبليس: لا مصلحة فيه لأنه يجمع طائفة على نفسه ويقاتلكم بهم، وقال أبوجهل: الرأى أن نجمع من كل قبيلة رجلا فيضربوه بأسيافهم ضربة واحدة، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنوهاشم على محاربة قريش كلها، فيرضون بأخذ الدية، فقال إبليس: هذا هو الرأى الصواب فأوحى الله إلى نبيه- صلى الله عليه وسلم- بذلك وأذن له فى الخروج إلى المدينة وأمره أن لايبيت فى مضجعه وأذن الله له فى الهجرة، وأمر عليا- رضى الله عنه- أن يبيت فى مضجعه، وقال له: تسج ببردتى فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه، وباتوا مترصدين، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه فأبصروا عليا فبهتوا وخيب

الله سعيهم، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه" وإذيمكر بك الذين كفروا...." الآية

وقوله تعالى" **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** "،أى ويدبرون أمرهم ويكيدون خفية ويبدد الله كيدهم ومكرهم والله خير من يجازيهم على مكرهم بالعذاب وإحباط ذلك المكر الأثيم من حيث لايشعرون. وفى قوله " **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ** " مشاكلة، حيث سمى سبحانه جزاء مكرهم مكرا لذكره فى مقابلة مكرهم على حد قول الشاعر:

قالوا اقترح شيئا نجد لل طبخة قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

فعبر الشاعرعن الخياطة بالطبخ فى قوله"اطبخوا" أى خيطوا، ومعنى المشاكلة ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته لفظا أوتقديرا، ومثله قوله تعالى: فى سورة المائدة" **تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك**" حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى لوقوعها فى صحبتة "**تفسى**".[1]

وقيل فى الكلام استعارة تبعية، أومجاز مرسل، أواستعارة تمثيلية.

وإطلاق خير الماكرين على الله تعالى فى قوله " **وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** " إما أن يكون المراد أقوى الماكرين، فوضع"خير" موضع أقوى وأشد، لينبه بذلك على أن كل مكر فهو يبطل فى مقابلة فعل الله ومن ثم فأفعل التفضيل على بابه، وإما على غير بابه إذا كان على معنى أنه- سبحانه- لاينزل إلا

---

١ - انظر حسن الصنيع فى علم المعانى والبيان والبديع ص (١٧٣).

الحق لانتفاء المشاركة، وقيل هو من قبيل" الثريد خير من فلان الفاضل، والصيف أحر من الشتاء" على معنى أن مكره تعالى فى خيريته أبلغ من مكرهم فى شريته.

قال الله تعالى" **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ.**

علاقة الآيات بماقبلها:

لما حكى الله- سبحانه وتعالى- مكرهم فى ذات محمد- صلى الله عليه وسلم- حكى مكرهم فى دين محمد.

المعنى العام:

كان النضر بن الحارث قد خرج فى تجارة إلى الحيرة فاشترى أحاديث كليلة ودمنة وكسرى وقيصر فلما قص رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أخبار من مضى قال النضر لو شئت لقلت مثل هذا، فأنزل الله تلك الآيات مبينا أنه إذا تتلى عليهم آيات الله بقراءة الرسول- صلى الله عليه وسلم-

قالوا مكابرة وعنادا قد سمعنا لو أردنا أن نقول مثله لقلناه إن هذا إلا أساطير الأولين مما سطروه من القصص وكذبوا فى قولهم وطغوا.

وفى إسناد القول فى قوله تعالى" **قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا** " إلى الكل مجاز مرسل علاقته الكلية لأن القائل هو النضر بن الحارث، وكان رئيسهم وقاضيهم الذى يقولون بقوله ويعلمون برأيه، وقيل قائله الذين ائتمروا فى أمره فى دار الندوة وعليه فلا مجاز هنا.

وكلمة "لو" فى قوله " **لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** " تفيد انتفاء الشىء لانتفاء غيره، ومن ثم فقوله تعالى" **لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا** " يدل على أنه ماشاء ذلك القول،وما قال، فثبت أن النضر بن الحارث أقر أنه ماأتى بالمعارضة، وإنما أخبر أنه لوشاءها لأتى بها، وفى قوله " **إِنْ هَـذا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** " قصر طريقة النفى والاستثناء من قصر الموصوف على الصفة قصرا إضافيا، أراد هؤلاء الضالون به تأكيد أن القرآن على هذه الصفة وكذبوا، بل هو كما قال الله فيه "**إن هو إلا ذكر وقرآن مبين**".

ولما قال النبى- صلى الله عليه وسلم- للنضر بن الحارث ويلك هذا كلام الله تعالى قال النضر: اللهم إن كان هذا القرآن هو الحق من عندك فعاقبنا على إنكاره وأمطر علينا حجارة من السماء وأرسل علينا السجيل كما فعلت بأصحاب الفيل أوائتنا بعذاب أليم غيره، وهذا ما حكاه رب العزة فى قوله " **قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من**

السماء أو ائتنا بعذاب أليم" فإن قيل ألم يعد ما حكاه الله عن الكفار كلاما لهم مثل هذه الآيات، وهو من جنس نظم القرآن ومن ثم فقد أتوا بمعارضة القرآن والإتيان بهذا القدر من كلامهم.

يقال ردا على ذلك: إن الإتيان بهذا القدر من الكلام لا يكفى فى حصول المعارضة، فضلا عن أنه كلام قليل لايظهر فيه وجوه الفصاحة والبلاغة وأيضا قد يكون ما حكاه الله عنهم هو معنى مرادهم، والنص من عند الله نظما وتأليفا، ومن ثم لا معارضة ولا إتيان لهم بشيء من القرآن. وفى قوله" **فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا** " استعارة تبعية لأن " أمطر" بمعنى أنزل فقد شبه الإنزال بالإمطار بجامع نزول شيء من أعلى بكثرة، واشتق من الإمطار" أمطر" بمعنى أنزل وفائدة قولهم من السماء بعد قولهم"أمطر" والمطر لايكون إلا من السماء، أنهم أرادوا من الحجارة السجيل، والسجيل موضع الحجارة المسومة فى السماء [1] كقولهم مسرودة من حديد.

ثم ذكر الله عزوجل سبب عدم إنزال العذاب عليهم فقال" **وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون**" أى وما كان الله مريدا تعذيبهم بما سألوا وأنت فيهم لأن العذاب إذا نزل عم ولم تعذب أمة إلا بعد خروج نبيها، وماكان الله معذبهم وهم يقولون فى طوافهم غفرانك غفرانك،أو والمؤمنون المستضعفون فيهم وقد أفادت الآية بعمومها أن فى الأرض أمانين من عذاب الله وقد رفع أحدهما وبقى الآخر، أما الذى رفع

---

١ - البحر المحيط ج٤ ص (٤٨٨).

فهو وجود رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بين الناس حيث انتقل إلى الرفيق الأعلى بموته، وأما الباقى فهو الاستغفار ممن آمن بالله ورسوله- صلى الله عليه وسلم-، ولذلك جاء خبر كان المنفية اسما "معذبهم" ليؤكد نفى العذاب مع الاستغفار والتوبة والإيمان، ثم قال الله تعالى "**ومالهم ألايعذبهم الله**" أى أنه- سبحانه- يعذبهم إذا خرج الرسول- صلى الله عليه وسلم- من بينهم.ثم اختلفوا فى هذا العذاب فقال بعضهم: لحقهم هذا العذاب المتوعد به يوم بدر، وقيل بل يوم فتح مكة.

وقال ابن عباس: هذا العذاب هو عذاب الآخرة، والعذاب الذى نفاه عنهم هو عذاب الدنيا، ثم بين تعالى مالأجله يعذبهم. فقال تعالى: " **وَهُمْ يَصُدُّون عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**" أى يصدون المؤمنين عن الطواف بالبيت الحرام والصلاة فيه، ومن صدهم إلجاء رسول الله- صلى الله عليه وسلم- إلى الهجرة وإحصارهم له- صلى الله عليه وسلم- وللمؤمنين عن الحديبية حينما أرادا النسك والعبادة فى المسجد الحرام، وقد فعل الكفار ذلك وهم يدعون أنهم أصحاب الولاية على البيت يدخلون إليه من أحبوا ويمنعون منه من أرادوا، ثم بين بطلان هذه الدعوى بقوله تعالى " **وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون**" الذين يتحرزون عن المنكرات ويقدسون البيت ويعرفون حرمته ولا يعبدون فيه غير الله- تعالى- من الأصنام والأوثان.

وفى الآية إشعار بأنهم سيدفعون قهرا عن الولاية للبيت حتى يتولاه المتقون وفى قوله" **إن أولياؤه إلا المتقون**" قصر طريقه النفى والاستثناء من قصر الموصوف على الصفة قصرا إضافيا لتوكيد المعنى.

وقوله تعالى" **وَلَـــكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** " فيه إشعار بأن فيهم من يعلم أنهم لا ولاية لهم على البيت ولكنهم كانوا يعاندون، وقيل المراد بأكثرهم كلهـــم كما يراد بالقلة العدم وقوله تعالى" **وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** " جملة حالية أفادت علة استحقاقهم للعذاب أى وكيف لايعذبون وحالهم الصد عـــن المسجد الحرام وجملة" **وما كانوا أولياءه**" حالية أيضا ولكنها حـــال مـــن ضمير "**يصدون**" مفيدة لنهاية قبح صنيعهم مع عدم استحقاقهم لولاية البيت.

ولما قال الله تعالى فى حق الكفار إنهم ماكانوا أولياء البيت الحرام، وقـــال تعالى "**إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ** " بين بعده مابه خرجوا من أن يكونوا أولياء البيت وهو أن صلاتهم عند البيت وتقربهم وعبادتهم إنما بالمكاء والتصدية.

قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون.

وقال مجاهد: كانوا يعارضون النبى- صلى الله عليه وسلم- فى الطـــواف ويستهزئون به، ويصفرون ويخلطون عليه طوافه وصلاته

وقال مقاتل: كأن إذا صلى الرسول- صلى الله عليه وسلم- فـــى المـــسجد يقومون عن يمينه ويساره بالتصفير والتصفيق ليخلطوا عليه صلاته.

فإن قيل: المكاء والتصدية ماكانا من جنس الصلاة، فكيف يجوز استثناؤهما عن الصلاة؟

قلنا: فيه وجوه. [1]

الأول: أنهم كانوا يعتقدون أن المكاء والتصدية من جنس الصلاة فخرج هذا الاستثناء على حسب معتقدهم.

الثانى: أن هذا كقولك وددت الأمير فجعل جفائى صلتى، أى أقام الجفاء مقام الصلة فكذا ههنا.

الثالث: الغرض منه أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلاصلاة له، كما تقول العرب: مالفلان عيب إلا السخاء، يريد السخاء عيبه فلا عيب له.

ويسمى هذا الأسلوب فى البلاغة المدح بما يشبه الذم، أو الذم بمايشبه المدح، ولكنه فى الآية ذم خالص حيث أخبر المولى عنهم بأنهم جعلوا بدل العبادة الشرعية الهرج والتشويش.

ثم قال تعالى" **فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** " أى عذاب السيف يوم بدر وقيل: يقال لهم فى الآخرة " **فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ**" وفيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب قصر به لفت نظر الكفار ليسمعوا ذلك الوعيد المسب عن كفرهم.

---

١ - انظر مفاتيح الغيب ج٧ ص (٤٩٠) وما بعدها.

وفيه أيضا استعارة تصريحية تبعيه فى الفعل " ذوقوا"، شبه إيلام الكافرين بالعذاب بالذوق بجامع الإحساس بالشىء والشعور به فى كل، ثم اشتق من الذوق ذوقوا، أوفيه استعارة مكنية فى المفعول "العذاب"، حيث شبه العذاب بشىء يذاق، وحذف المشبه به ورمز إليه بقوله "فذوقوا" ولايخفى ما للاستعارة هنا من جمال فى تصوير العذاب وجعله محسا يتذوق ومافى ذلك من زجر وتخويف.

قال الله تعالى:" **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ".

علاقة الآيات بما قبلها:

لما شرح الله- تعالى- أحوال هؤلاء الكفار فى الطاعات البدنية، أتبعها بشرح أحوالهم فى الطاعات المالية وهى إنفاقهم الأموال للصد عن سبيل الله.

المعنى العام:

بين الله- عزوجل- أن الكفار ينفقون هذا المال ليصدوا عن سبيل الله، أى كان غرضهم فى الإنفاق الصد عن اتباع محمد وهو سبيل الله، وإن لم يكن عندهم كذلك فقال- سبحانه- " **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ** "، واللام فى " **لِيَصُدُّواْ** " للصيرورة حيث صار الإنفاق صدا

وتسمى لام العاقبة، أو هى للتعليل ثم قال تعالى " **فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** "، أى: أنه سيقع هذا الإنفاق ويكون عاقبته الحسرة، لأن المال سيذهب ولايحصل المقصود، بل يصيرون مغلوبين فى آخر الأمر، وقد جعلت ذات الأموال حسرة مبالغة، والمراد عاقبة إنفاقها.

ولا تكرار فى قوله تعالى" **فَسَيُنفِقُونَهَا**"مع قوله" **يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ** " إما لأن المراد بالإنفاق الأول الإنفاق يوم بدر، وبالثانى فى يوم أحد مستقبلا وإما لأن مساق الأول الغرض من الإنفاق، ومساق الثانى بيان عاقبته وأنه لم يقع الموقع.

وقوله تعالى" **وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** "، أى والذين كفروا ولم يسلموا فيما بعد وماتوا على كفرهم إلى جهنم يحشرون.

ويلاحظ: أنه لم يقل" **وإلى جهنم يحشرون**" لأنه كان فيهم من أسلم، بل ذكر أن الذين بقوا على الكفر يكونون كذلك. وقوله" **إلى جهنم يحشرون**" يفيد أنه لايكون حشرهم إلا إلى جهنم لأن تقديم الخبر يفيد الحصر وبعد أن بين سبحانه أن الذين كفروا ينفقون أموالهم للصد فى سبيل الله لتكون عليهم حسرة وندما وفى النهاية يغلبون ثم إلى جهنم يحشرون، بين سبحانه علة غلب المؤمنين لهم فى الدنيا ثم حشرهم إلى جهنم فى الآخرة فقال:" **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** " أى يغلبون ويحشرون ليفصل الله الكافرين من المؤمنين والحق من الباطل، وما أنفقه المسلمون لنصرة دين

الله مما أنفقه المشركون لنصرة باطلهم وشركهم، ويجعل الخبيث بعضه على بعض، أى الكفار بعضهم إلى بعض، أو الكفار ومأأنفقوا ثم يجعل الجميع مجموعا فى جهنم ليذوقوا وبال كفرهم وصدهم عن سبيل الله وأولئك هم الخاسرون لا غيرهم لفرط عنادهم وقبح أحوالهم وسوء تصرفهم نحو دين الله ورسول الله- صلى الله عليه وسلم، فحصر الخاسرين فيهم واقع من تعريف المبتدأ والخبر فى قوله- عز وجل- " **أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** " وكذلك ضمير الفصل، وجيء باسم الإشارة للبعيد" **أُوْلَـئِكَ** " للإشارة إلى بعد درجتهم فى الخبث والخسارة أو بعدهم عن الفوز ونيل رضا الله ورحمته.

قال الله- تعالى-" **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ".

علاقة الآيات بما قبلها:

لما بين الله- عزوجل- صلاة الكافرين فى عباداتهم البدنية، وعباداتهم المالية، وما يحل بهم من حشر إلى النار، أرشدهم فى هذه الآيات إلى طريق الصواب فقال تعالى" قل للذين كفروا إن ينتهوا"

المعنى العام:

يقول الله تعالى" **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ** " أى أن هؤلاء الكفار إن انتهوا عن الكفر وعداوة الرسول، ودخلوا الإسلام والتزموا شرائعه غفر الله لهم ماقد سلف من كفرهم وعداوتهم للرسول، وإن عادوا إليه وأصروا فقد مضت سنة الأولين.

والمراد **فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ** منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر، **أوفَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ** الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الذين مروا فليتوقعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا قال صاحب الكشاف" **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ** " أى قل لأجلهم هذا القول، وهو " **إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم** " ولوكان بمعنى خاطبهم به لقيل: إن تنتهوا وقال ابن مسعود هكذا.

وأضاف السنة إلى الأولين وهى فى الحقيقة لله تعالى لملابستها لهم كما أضافها للمرسلين فى قوله" **سنت من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا**" لجريانها على أيديهم، على سبيل المجاز العقلى ثم أمر سبحانه بقتل الكفار بعد أن بين أن توبتهم بالإسلام ترفع عنهم كل تبعة وتجب كل ماسلف منهم فقال سبحانه"**وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير**"، قال عروة بن الزبير: كان المؤمنون فى مبدأ الدعوة يفتنون عن دين الله، فأفتتن من المسلمين بعضهم وأمر الرسول- صلى الله عليه

وسلم- المسلمين إلى الحبشة.وفتنة ثانية وهو أنه لما بايعت الأنصار رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بيعة العقبة، تآمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين بمكة عن دينهم، فأصاب المؤمنين جهد شديد.فهذا هو المراد من الفتنة، فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة.

قال النسفى فى قوله تعالى" **حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ** ": إلى أن لايوجد فيهم شرك قط.(١)

قال القاضى: إنه تعالى أمر بقتالهم ثم بين العلة التى بها أوجب قتالهم فقال تعالى" **حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ** " ويخلص الدين الذى هو دين الله من سائر الأديان وإنما يحصل هذا المقصود إذا زال الكفر بالكلية.(٢)

وأفرد فى قوله " **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ** " وجمع فى قوله " **وَقَاتِلُوهُمْ** " لأن الغرض الأول التلطف وهى وظيفة النبى- صلى الله عليه وسلم- والغرض من الثانى التحريض على القتال والمخاطب به الكل.

ثم قال تعالى" **فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** " والمعنى" **فإن انتهوا**" عن الكفر وسائر المعاصى بالتوبة والإيمان" **فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** " عالم لايخفى عليه شىء يوصل إليهم ثوابهم.

" **وَإِن تَوَلَّوْاْ** " يعنى عن التوبة والإيمان، " **فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ**" أى وليكم الذى يحفظكم ويرفع البلاء عنكم، ثم بين أنه تعالى" نعم المولى ونعم

---

١ - النسفى ج٢ ص (١٠٣).

٢ - مفاتيح الغيب ج٧ ص (٤٩٥).

النصير" وكل ماكان فى حماية هذا المولى وفى حفظه وكفايته كان آمنا من الآفات مصونا عن المخوفات.

وجاء جواب الشرط" **فإن الله بما يعملون بصير**" جملة إسمية مقرونة بـإن المؤكدة، لتأكيد الخبر وتقويته.

قال الله تعالى" **وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ".**

علاقة الآيات بما قبلها:

بعد أن بين سبحانه تعالى أن قتال الكفار مستمر حتى لايبقى مشرك يقف فى وجه الدعوة، وكان من المعلوم أن عند المقاتلة تحصل الغنيمة، بين سبحانه فى هذه الآيات حكم الغنيمة وكيفية تقسيمها.

المعنى العام:

أى واعلموا أيها المؤمنون أن أى شىء غنمتموه كائنا ماكان عظيما أم حقيرا فإن حق الله فيه الخمس يقسم على الرسول- صلى الله عليه وسلم- وينصرف له ولذى قرباه- صلى الله عليه وسلم- من بنى هاشم وبنى المطلب دون بنى عبد شمس وبنى نوفل، لما روى عن عثمان وجبير بن مطعم أنهما قالا لرسول الله- صلى الله عليه وسلم-: هؤلاء إخوتك بنوهاشم لاينكر فضلهم لكونك منهم أرأيت إخواننا بنى المطلب أعطيتهم وحرمتنا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة، فقال عليه الصلاة والسلام" إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام، إنما بنوهاشم وبنو المطلب شىء واحد وشبك بين أصابعه. وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل.

وأما بعد وفاة الرسول-صلى الله عليه وسلم- فعند الشافعى رحمة الله: أنه يقسم على خمسة أسهم، سهم لرسول الله،يصرف إلى مكان يصرفه إليه من مصالح المسلمين،كعدة الغزاة من الكراع والسلاح، وسهم لذوى القربى من أغنيائهم وفقرائهم يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين، والباقى للفرق الثلاثة وهم: اليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

وقال أبوحنيفة رحمه الله: إن بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام سهمه ساقط بسبب موته" صلى الله عليه وسلم- كذلك سهم ذوى القربى، وإنما يعطون لفقرهم، فهم أسوة سائر الفقراء، ولايعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل وعلى ذلك فذكر الاسم الجليل للتبرك.

وقال الإمام مالك: الأمر فى الخمس مفوض إلى رأى الإمام إن رأى قسمته على هؤلاء فعل، وإن رأى إعطاء بعضهم دون بعض، فله ذلك.وقيل يقسم الخمس على ستة، سهم الله يصرف للرسول، أو على مصالح الكعبة، وقيل لبيت المال.

والمقصود من بيان الموصول بقوله" من شيء" الاعتناء بشأن الغنيمة وألاَّ يشذ عنها شيء، والمعنى ماغنمتموه كائنا ماكان ممايقع عليه اسم الشيء خلا أن سلب المقتول للقاتل والأسارى يخير فيهم الإمام وكذا الأراضى المغنومة

وذكر الاسم الجليل فى قوله" **فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ** " لايراد به إيجاب سهم سادس بل للإشارة إلى أن من حق الخمس أن يكون متقربا به إلى الله لاغير، وقيل غير ذلك كما بينا وأعاد اللام فى ذوى القربى دون غيرهم لدفع توهم اشتراكهم فى سهمه- صلى الله عليه وسلم- لمزيد اتصالهم به.

حكى صاحب الكشاف عن الكلبى أن هذه الآيات نزلت ببدر، وقال الواقدى رحمه الله: كان الخمس فى غزوة بنى قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة.

ثم قال تعالى" **إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ** " أى اعلموا أن خمس الغنيمة مصروف إلى هذه الوجوه الخمسة فاقطعوا عنه أطماعكم بالأخماس الأربعة " **إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا** " أى إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل على عبدنا " **يَوْمَ الْفُرْقَانِ** " يوم بدر، " **يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** " الفريقان من

المسلمين والكافرين، والمنزل على رسول الله- صلى الله عليه وسلم. هو الآيات، والملائكة، والفتح فى ذلك اليوم.

" **والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ** " أى يقدر على نصركم وأنتم قليلون ذليلون.

ثم قال تعالى" **إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ** إلخ"أى واذكروا إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهى شط الوادى القريب من المدينة، وعدوكم بالعدوة القصوى وهو شط الوادى البعيد من المدينة القريب من مكة، والركب أسفل منكم وهو أبوسفيان ومن معه وهم أصحاب العير فى مكان أسفل منكم إلى ساحل البحر ولو تواعدتم أنتم وهم على القتال لاختلفتم فى الميعاد ولم يقع اتفاق لكثرتهم وقلتكم فإنكم لو عرفتم كثرتهم لتأخرتم، فوفق الله ذلك لكم ليقضى أمرا كان مفعولا وهو نصر المؤمنين وإظهار الدين ومحق الكافرين،فعل ذلك- سبحانه- ليهلك ويكفر من هلك وكفرعن بينة وحجة ظاهرة وهى نصر المؤمنين مع قلتهم على الجيش الكثير، ويحيا ويؤمن من حى وآمن عن بينة " **وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ** " بكفر من كفر وعقابه وإيمان من آمن وثوابه.

فآية" **إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا....إلخ**" فيها فائدة عظمى وهى- كما قلت- الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدو وشوكته وضعف شأن المسلمين وأن غلبتهم فى مثل هذه الحال ليست إلا صنعا من الله تعالى ودليلا على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته وذلك أن

العدوة القصوى كان فيها الماء والأرض لابأس بها، والعدوةالدنيا لاماء بها والأرض رخوة، وكانت العير وراء ظهور العدو والحماية دونها تضاعف حميتهم.

وقوله تعالى" **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ** " فيه إشارة إلى هذا المعنى وهو أن الذين هلكوا إنما هلكوا بعد مشاهدة هذه المعجزة، والمؤمنون الذين بقوا فى الحياة شاهدوا هذه المعجزة القاهرة، والمراد من البينة هذه المعجزة.

واللام فى قوله تعالى" **لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً** "، وفى قوله " **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ** " لام الغرض، أو التعليل ثم قال الله تعالى" **إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ". أى اذكر يا محمد إذ يريكهم الله فى منامك قليلا فأخبرت به أصحابك فثبتوا واستبشروا واطمأنت قلوبهم ففازوا بالنصر ولو أراك العدو كثيرا لفشلتم وجبنتم عن الحرب وتنازعتم واختلفتم فى أمر القتال ولكن الله سلم من الفشل والتنزع إنه عليم بذات الصدور، وتنكير لفظ"عليم" للتعظيم ثم قال تعالى" **وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ** "، وهذا هو النوع الثالث من النعم التى أظهرها الله للمسلمين يوم بدر، والمراد أن القليل الذى حصل فى النوم تأكد ذلك بحصوله فى اليقظة.

واعلم أنه تعالى قلل عدد المشركين فى أعين المؤمنين، وقلل أيضا، عدد المؤمنين فى أعين المشركين، والحكمة فى التقليل:

الأول: تصديق رؤيا الرسول- صلى الله عليه وسلم- وأيضا لتقوى قلوبهم وتزداد جراءتهم عليهم، والحكمة فى التقليل الثانى: أن المشركين لما استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا فى الاستعداد والتأهب والحذر، فصار ذلك سببا لاستيلاء المؤمنين عليهم.[1]

وقد يظن أن ذكر قوله تعالى" **لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً**" ثانيا تكرار، وليس منه لأن المقصود من ذكره فى الآية المتقدمة هو أنه تعالى فعل تلك الأفعال ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول- صلى الله عليه وسلم- والمقصود من ذكره ههنا ليس هو ذلك المعنى بل المقصود أنه تعلى ذكر ههنا أنه قلل عدد المؤمنين فى أعين المشركين ليصير ذلك سببا لعدم مبالغة الكفار فى الاستعداد والحذر فيكون ذلك سببا لانكسارهم وهزيمتهم.ثم قال الله تعالى" **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ** " للتنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زادا ليوم المعاد.

وتقديم الجار والمجرور" وإلى الله" لإفادة حصرمآل الأمر ومرجعها إلى الله وحده، وهذا ادعى لأن يخلص العبد العمل لله تعالى.

قال تعالى" **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ. وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا**

---

١ - نفسه ص (٥٠٣).

وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ".

علاقة الآيات بما قبلها:

لماذكر الله- تعالى- أنواع نعمه على الرسول- صلى الله عليه وسلم- وعلى المؤمنين يوم بدر علمهم إذا التقوا بالفئة وهى الجماعة من المحاربين نوعين من الأدب:

الأول: الثبات وهو أن يوطنوا أنفسهم على اللقاء ولايحدثوها بالتولى.

الثانى: أن يذكروا الله كثيرا.

وذكر لهم- أيضا- أمر الشيطان مع الكافرين وتزيينه لهم، فلما تراءت الفئتان والتقى الجمعان نكص على عقبيه ورجع لأنه رأى مالايرى القوم من تأييد الله للمؤمنين بالملائكة.

المعنى العام:

يا أيها الذين آمنوا إذا حاربتم الكفار فاثبتوا لقتالهم ولاتفروا واذكروا الله كثيرا فى مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به داعين له على

عدوكم لعلكم تفلحون وتظفرون بمرادكم لأن مقاتلة الكافر إن كانت لأجل طاعة الله تعالى كان ذلك جاريا مجرى بذل الروح في طلب مرضاة الله- تعالى- وهذا أعظم مقامات العبودية، فإن غلب الخصم فاز بالثواب والغنيمة وإن صار مغلوبا فاز بالشهادة والدرجات العالية وأما إن كانت المقاتلة لا لله بل لأجل الثناء في الدنيا وطلب المال لم يكن ذلك وسيلة إلى الفلاح والنجاح.

وفي تصدير الخطاب بحرف النداء والتنبيه في قوله" **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم**" إظهار لكمال الاعتناء بمضمون مابعده، وذلك لأن جملة النداء هذه تتضمن فنونا من التوكيد، منها استعمال حرف"يا" الذى للبعيد للإشارة إلى أن الذين آمنوا ينادون لأمر مهم وخطير فليجمعوا قلوبهم وعقولهم لتلقيه ولولا هذه الإشارة لجيء ب"أى" أو الهمزة، لأن الله قريب إلى كل منادى، وقد قال النحاة: إن"يا" تستعمل في نداء البعيد أو من ينزل منزلته من الساهي والغافل، وقال ابن هشام: وقد ينادى بها القريب توكيدا.[1]

ومنها " أى" وهى اسم مبهم يفتقر إلى مايوضحه ويكون صلة لنداء مافيه أل ويأتى بعد أى اسم يوضح إبهامه، ويكون وصفا ل"أى"، فحرف النداء في جملتنا داخل على"أى" وعامل فيه، ولفظ "الذين" وصف له موضح لإبهامه، وفي التوضيح بعد الإبهام لون من التوكيد والتقرير وذلك لتشوف

---

١ - انظر قطر الندى لابن هشام ص (٢٨١) وشذوذ الذهب في معرفة كلام العرب ص (١١٠) وما بعدها.

السامع مع الإبهام إلى مايزيله ويكشف غموضه، فإذا جاء الموضح قر فى النفس وتمكن منها، ومن فنون التوكيد هنا- أيضا- هذه الهاء الممتدة بين "أى" والوصف تعاضد حرف النداء وتقوية، فتزيد هذه الطريقة من النداء قوة ووكادة. وفى الأمر بذكر الله كثيرا فى هذا الموطن إشعار بأن على العبد ألا يفتر عن ذكر ربه أشغل مايكون قلبا وأكثر مايكون هما وأن تكون نفسه مجتمعه لذلك وإن كانت متوزعه عن غيره.

قوله قال تعالى مؤكدا لذلك " **وأطيعوا الله ورسوله** "فى سائر مايأمر به لأن الجهاد لاينفع إلا مع التمسك بسائر الطاعات.

ثم قال تعالى" **وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** " أى ولاتختلفوا فتفشلوا وتذهب دولتكم، أو كما قال مجاهد وتذهب نصرتكم، فإن كان المراد بالريح الدولة، يكون فى الآية استعارة تصريحية أصلية شبهت الدولة بالريح فى نفوذ أمرها ومضيه، ويجوز أن يكون من باب الكناية.

ثم قال الله تعالى" **وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** "، والمقصود أن كمال أمر الجهاد مبنى على الصبر، فأمرهم بالصبر، وبين أنه تعالى مع الصابرين وجاء الخبر فى قوله " **إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** " مؤكدا بإن وإسمية الجملة لأنه- أى الخبر- مسبوق بكلام يشير إشارة ما إلى جنس الخبر حتى إن النفس اليقظى والفهم المتسارع يكاد يتردد فيه ويطلبه لا أنه يشير إلى حقيقة الخبر وخصوصيته.

فقوله" **وَاصْبِرُواْ** " تلويح وإشارة إلى جنس الخبر، وهو أنهم مأمورون بالصبر، ولاشك أن فيه منافع كثيرة لهم، ومن أنواع هذه المنافع كون الله- عزوجل- مع الصابرين فجاء قوله " **إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** " محددا نوعا من أنواع هذا الجنس.

ثم قال الله- تعالى- " **وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ** " أى احذروا التنازع واختلاف الرأى لئلا يحل بكم ماحل بالمشبه بهم فقال، ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم لنصرة العير ولم يرجعوا حينما علموا بنجاتها لأجل الفخروالأشر وثناء الناس عليهم بالشجاعة والسماحة والصد عن سبيل الله ودينه. والبطر هو الطغيان فى النعمة أى أن العبد إذ توسل بالنعم إلى المفاخرة على الأقران والمكاثرة على أهل الزمان فذاك هو البطر، أما إذا كثرت وصرفها فى مرضاة الله وعرف أنها من الله تعالى فذاك هو الشكر.

والرئاء هو القصر إلى إظهار الجميل مع أن باطنه يكون قبيحا، والفرق بينه وبين النفاق أن النفاق إظهار الإيمان مع إخفاء المعصية.

وعبر بالاسم أولا والفعل ثانيا فى قوله" **بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله**" لأن الاسم يدل على التمكين والاستمرار، والفعل يدل على التجدد والحدوث، فأبوجهل ورهطه وشيعته كانوا مجبولين على البطر والمفاخرة والعجب، أما صدهم عن سبيل الله فإنما حصل فى زمان نبوة رسول الله- صلى الله عليه وسلم-.

ثم ختم هذه الآية بقوله تعالى" **وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** " والمقصود أن الإنسان ربما أظهر من نفسه أن الحامل له والداعى إلى الفعل المخصوص طلب مرضاة الله تعالى مع أنه لايكون الأمر كذلك فى الحقيقة، فبين تعالى كونه عالما بما فى دواخل القلوب وذلك كالتهديد والزجر عن الرئاء والتصنع. ثم قال تعالى" **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ....إلخ**" أى واذكر يامحمد واذكروا أيها المؤمنون إذ زين الشيطان للمشركين أعمالهم التى عملوها فى معاداة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ووسوس إليهم أنهم لايغلبون وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته ممايجيرهم، فلما تراءى الفريقان وتلاقيا نكص الشيطان على عقبيه وتبرأ منهم وبطل كيده وترك الوسوسة التى كان يفعلها وخاف عليهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله- تعالى- للمسلمين بالملائكة وقيل إنه قال ما قال حقيقة لأنه تمثل فى صورة سراقة بن مالك الكنانى وقال للمشركين ما قال فلما رأى الملائكة تنزل لنصرة المؤمنين نكص وتبرأ وقال معللا فراره إنى أرى مالاترون إنى أخاف الله أن يهلكنى.

وفى قوله " **وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ** " استعارة تبعية، شبهت فيها الوسوسة بالقول، واستعير القول لها، واشتق منه قال بمعنى وسوس، هذا إذا لم يكن الشيطان تمثل فى صورة سراقة، وإلا فالقول حقيقة. وفى قوله"تراءت الفئتان" كناية عن التلاقى، أى ذكر الترائى وأريد التلاقى وفى قوله" نكص على عقبيه"استعارة تمثيلية، شبهت فيها هيئة بطلان كيد

الشيطان بعد تزيينه بهيئة من رجع القهقرى عما يخافه، واستعير التركيب الدال على الهيئة المشبه بها للهيئة المشبهة.

ثم فضح الله- عزوجل- المنافقين بكشف ماقالوه عن المؤمنين يوم بدر وباءوا بخزيه فقال " **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** " أى اذكروا إذ يقول المنافقون بالمدينة والذين فى قلوبهم مرض ولم تطمئن قلوبهم بالإيمان بعد، يقولون غرَّ هؤلاء دينهم حتى تعرضوا لما لا قدرة لهم عليه حيث خرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا لقتال زهاء ألف، وجواب هذا من الله تعالى أن من يتوكل على الله ينصره ويخذل أعداءه، فإن الله عزيز غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى، حكيم لايفعل إلامافيه المصلحة. ولم تدخل الواو فى قوله"إذيقول" ودخلت فى قوله" وإذ زين لهم" لأن قوله تعالى " **وَإِذْ زَيَّنَ** " عطف هذا التزيين على حالهم وخروجهم بطرا ورئاء، وأما هنا وهو قوله تعالى" **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ** " فليس فيه عطف لهذا الكلام على ماقبله بل هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله.

قال الله تعالى" **وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ** "

ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم وأن الله سميع عليم كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين.

علاقة الآيات بماقبلها:

لماشرح الله- عزوجل- أحوال هؤلاء الكفارشرح أحوال موتهم، والعذاب الذى يصل إليهم فى ذلك الوقت، ثم أتبعه بأن بين أن هذه طريقته وسنته فى الكل فقال تعالى" **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ**....".

و**المعنى**: عادة هؤلاء فى كفرهم كعادة آل فرعون فى كفرهم، فجوزى هؤلاء بالقتل والسبى كما جوزى أولئك بالإغراق.

المعنى العام:

" **وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ**....أى: ولو رأيت حال الكفرة وقت أن توفتهم الملائكة يوم موتهم أويوم قتلهم فى بدر أو يوم القيامة بسوقهم إلى النار لو رأيتهم لرأيت هولا كبيرا حيث يضربون وجوههم وأدبارهم تنكيلا بهم وتعذيبا لهم ولرأيتهم يقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق على مارتكبتموه من إثم وكفر بسبب ماقدمت أيديكم فى الدنيا لأن الله ليس بظلام للعبيد فلا يعذبهم بدون ذنب ارتكبوه ولاإثم اقترفوه فضلا منه وكرما لأن الله- تعالى- لايجب عليه شىء أصلا: وقدم المفعول به " **الَّذِينَ كَفَرُواْ** " فى قوله" إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة"للاهتمام به، كما أن فى قوله "وجوههم وأدبارهم"، تخصيصا لأن الخزى والنكال فى ضربهما أشد

إذاكان المراد ماأقبل منهم ومأأدبر، أما إذا كان المراد من الأدبار الأستاه فيكون فى الكلام كناية، وهذه طريقة القرآن فى التعبير عن كل ما يستهجن ذكره صراحة.

وقوله تعالى" **وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ** " كلام مستأنف من الله فيه إضمار والتقدير: نقول ذوقوا عذاب الحريق، جاء على سبيل التقريع للكافرين إما فى الدنيا حالة الموت أى مقدمة عذاب النار، وإما فى الآخرة. ويحتمل ذلك ومابعده أن يكون من كلام الملائكة.

وفى قوله " **وَذُوقُواْ** " استعارة تهكمية تبعية لأن الذوق يكون فى الطعومات المستلذة غالبا، وفيه إشارة على أنه قليل من كثير وأنه مقدمة. ويقال فى الاستعارة هنا إنه نزل التضاد منزلة التناسب تهكما فشبه إيلام العذاب وإيجاعه بتذوق طعام لذيذ، واستعير التذوق أوالإذاقة للإيلام والإيجاع، واشتق من الإذاقة" ذوقوا" بمعنى تألموا على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التهكمية. وفى قوله"ذلك بماقدمت أيديكم" مجاز مرسل علاقته الجزئية،حيث عبر بالجزء وهو" أيديكم" وأراد الكل وهو البدن كاملا، وخصت الأيدى لأن بها أكثر الفعل وبها البطش.

وجىء باسم الإشارة "ذلك" وهو للبعيد للدلالة على أن هذا العذاب يكون فى الآخرة، أو للدلالة على أنه عذاب مهول فظيع فناسبه من التعبير مايدل على بعد هذه المنزلة هولا وعذابا وإيلاما.

وفى التعبير عن عدم تعذيب العباد من غير ذنب بنفى الظلم مع أن تعذيبه تعالى بغير ذنب ليس بظلم قطعا بيان لكمال نزاهته- تعالى- بتصويره بصورة مايستحيل صدوره منه- تعالى- من الظلم.

والمراد بالنفى فى قوله- تعالى- **لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** " نفى نفس الظلم لانفى الكثرة، وإنما جيء بصيغة "فعال" للإشارة إلى عظم العذاب على سبيل الكناية، لأن الفعل يدل بظاهره على غاية الظلم إذا لم يتعلق بمستحقه فإذا صدر ممن هو أعدل العادلين دل على أنه استحق أشد العذاب لأنه أشد المسيئين، أويقال هذه صيغة نسب لاصيغة مبالغة، والمعنى ليس بذى ظلم للعبيدأو التكثير لأجل العبيد الذى هو اسم جمع فى المعنى.

وأخبر- سبحانه وتعالى- عن عادة كفار قريش من الكفر ومافعله بهم فقال "كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب....أى دأب كفار قريش فيمافعلوه من الكفر ومافعل بهم من العذاب كدأب الأمم الماضية المكذبة فيما فعلوا وفعل بهم، فآل فرعون جاءهم موسى وعلموا أنه نبى فكذبوه، كذلك هؤلاء لما جاءهم محمد- صلى الله عليه وسلم- بالصدق كذبوه فأنزل الله بهم عقوبته كما أنزلها بآل فرعون إن الله قوى شديد العقاب لايغلبه غالب فيدفع عقابه بمن أراد معاقبته. ذلك العذاب الذى حل بهم بسبب أن الله لم ينبغ له، ولم يصح فى حكمته أن يغير نعمته عند قوم حتى يبدلوا نعمتهم كفرا كتبديل كفار مكة إطعامهم من جوع وأمنهم من خوف وبعث النبى- صلى الله عليه وسلم-

إليهم بدلوا ذلك كله بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين إن الله سميع عليم يسمع ويعلم جميع مايأتون ومايذرون، ثم كرر للتأكيد قوله كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم، أولأن الأول إخبار بعذاب لم يمكن الله أحدا من فعله وهو ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند نزع أرواحهم، والثانى إخبار بعذاب مكن الله الناس من فعل مثله وهو الإهلاك والإغراق، وكلهم كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر ولأنبيائهم بالتكذيب.

وفى قوله" **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ**...إلخ" تشبيه ذكر المشبه به والأداة فيه والمشبه هو شأن كفار قريش الذين استمروا عليه ممافعلوا وفعل بهم من الأخذ والمشبه به هو شأن آل فرعون ومن قبلهم والجامع هو قباحة الأعمال وفظاعة العذاب والنكال. والدأب أصله الدوام والاستمرار، ثم غلب استعماله فى الحال والشأن والعادة لأن من يستمر فى عمله أمدا طويلا يصير عادة من عاداته وحالا من أحواله فهو من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم.

وآل فرعون هم أعوانه ونصراؤه وأشياعه الذين استحبوا العمى على الهدى واستمروا على النفاق حتى صار ديدنا لهم، والآل مقلوب الأهل ويصغر على أهيل إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة ولايقال آل رجل ولايقال آل الخياط، ويضاف إى الأشرف والأفضل فيقال آل الله وآل السلطان، وأهل يضاف إلى الكل فيقال

أهل الله وأهل الخياط، كما يقال أهل زمن كذا ثم ذكر مايجرى مجرى العلة فى العقاب الذى أنزله بهم فقال تعالى:" **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ** " ويؤخذ من هذه الآية أنهم كانوا فى حالة مرضية وبدلوها، ولكن لما كانوا متمكنين من الإيمان لوضوح الأدلة فكأنهم فيه، أويقال إن تغيير الحال المسخوطة إلى أسخط منها كتغيير الحال المرضية إلى حال سخوطه يترتب علىٰ التغيير الأول مايترتب على التغيير الثانى، وكفار قريش كانوا قبل بعثة الرسول كفرة عبدة أصنام وهذه حال مسخوطة، فلما بعث إليهم بالآيات البينات كذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين فى إراقة دمه وهذه حال أسخط من سابقتها، فلما غيروا بدل الله الإمهال بالأخذ بالعذاب.

وذكر الله- سبحانه وتعالى- قوله" **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ** " مرة أخرى لأن الكلام الثانى يجرى مجرى التفصيل للكلام الأول، لأن الكلام الأول فيه ذكر أخذهم، وفى الثانى ذكر إغراقهم وذلك تفصيل. أو أن الكلام الأول هو قوله تعالى" **كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ** " والكلام الثانى هو قوله تعالى" **كَذَّبُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ** " فالأول إشارة إلى أنهم أنكروا الدلائل الإلهية، والثانى إشارة إلى أنه سبحانه رباهم وأنعم عليهم بالوجوه الكثيرة، فأنكروا دلائل التربية والإحسان مع كثرتها وتواليها عليهم، فكان الأثر اللازم من الأول هو الأخذ، والأثر اللازم من الثانى هو الإهلاك والإغراق، وذلك يدل على أن لكفران النعمة أثرا عظيما فى حصول الهلاك والبوار.[1]

---

١ مفاتيح الغيب ج ٧ ص (٥١٨).

أو الأولى للتشبيه فى التكذيب، والثانية للتشبيه فى الاستئصال. ثم ختم تعالى الكلام بقوله تعالى" **وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ** " ليبين أنهم كانوا ظالمى أنفسهم بالكفر والمعصية، وظالمى سائر الناس بسبب الإيذاء والإيحاش وأن الله تعالى إنما أهلكهم بسب ظلمهم.

قال الله تعالى" **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ. فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ** "

علاقة الآيات بماقبلها:

بعدما وصف- سبحانه وتعالى- كل الكفار بقوله تعالى " **وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ** " أفرد بعضهم بمزية فى الشر والعناد فقال تعالى" **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ...**".

المعنى العام:

لمَّا وصف الله- تعالى- كل الكفار بقوله" **وكل كانوا ظالمين**" أفرد بعضهم بصفات فى الشر والعناد فقال" إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون.... .

أى إنَّ شر الدواب عند الله فى قضائه وحكمه الذين أصروا على الكفر ولجوا فيه فلا يتوقع منهم إيمان وهم بنو قريظة عاهدهم الرسول- صلى الله عليه وسلم- ألايمالئوا عليه فنكثوا.

وهم المعنيون بقوله تعالى" **الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ** " من مرات المعاهدة وهم لايتقون سبة الغدر ولايبالون بمافيه من العار والنار، ثم شرع فى بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم فقال: فإما تثقفنهم وتصادفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم وفرق عن محاربتك بقتلهم شر قتلة من وراءهم من الكفرة حتى لايجسر عليك بعدهم أحد اعتبارا بهم واتعاظا بحالهم لعل المشردين من ورائهم يتعظون بما شاهدوا مما نزل. بالناقضين فيرتدعوا عن الكفر والنقض.

وقوله تعالى" **منهم**" للتبعيض، فإن المعاهدات إنما تكون مع إشرافهم وجاء الفعل المضارع معطوفا على الفعل الماضى فى قوله" **الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم....**" للدلالة على تجدد النقض وتعدده وكونهم على نيته فى كل حال، ولبيان أن شأنهم نقض العهد مرة بعد مرة وفى قوله" **ينقضون عهدهم**" استعارة تصريحية تبعية فى الفعل أو مكنية فى العهد، و" النقض الفسخ وفك التركيب فإن قلت من أين ساغ استعمال النقض فى العهد؟ قلت من حيث تسميتهم العهد بالحبل، على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين، ومنه قول ابن التيهان فى بيعة العقبة: يارسول الله- صلى الله عليه وسلم- أن بيننا وبين القوم حبالا ونحن

قاطعوها، فنخشى أن الله-عزوجل- أعـزك وأظهـرك أن ترجـع إلـى قومك.....وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الـشيء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه، فينهبوا بتلك الرمزة على مكانه، ونحوه شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، وإذا تزوجت امراة فاستوثرها لم تقل هذا إلاوقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسـد وبحر وعلى المرأة بأنها فراش".[1]

ويلاحظ أن الزمخشرى فى هذا النص يجرى استعارة أخرى فى الـرادف، فقد ذكر أن النقض مستعمل فى إبطال العهد، فكأنه اسـتعارة تـصريحية تبعية بنيت على هذه الاستعارة المسكوت عنها، فالعلاقـة بـين الإبطـال والنقض لاتنهض وحدها فى بناء الاستعارة وإنما لابد أن تؤازرهـا تلـك العلاقة الأخرى التى بين العهد والحبل، وهذا مـاأراده الزمخـشرى فـى قوله"إن الذى سوغ استعارة الـنقض للإبطـال هـو اسـتعارتهم الحبـل للعهد".وكلام الزمخشرى فى القول باستعارة النقض للإبطال مخالف لكلام عبد القاهر الجرجانى والمتأخرين، لأنهم يرون أن الرادف مـستعمل فـى معناه الحقيقى وإنما الاستعارة فى إضافته إلى غير ماهوله وهـو الـرأى الوجيه لأن استعمال الروادف فى معانيها الحقيقية أبر بالمعنى لأنها حينئذ تبعث فى الخيال ماأضيفت إليه بطريق الاستعارة فى صورة ماتضاف إليه

---

١ - الكشاف ج١ ص (١٠٢).

بطريق الحقيقة، فقولنا: كريم يغترف الناس جوده، حين يكون الاغتراف باقيا على حقيقته تخيل إلينا أن الكريم بحر.

ويكون إجراء الاستعارة التصريحية التبعية فى الفعل" ينقضون" بتشبيه إبطال العهد بالنقض الذى هو فك طاقات الحبل،واستعير له اسمه، ثم اشتق منه ينقضون بمعنى يبطلون على طريق الاستعارة التصريحية التبعية. ويكون إجراء الاستعارة المكنية فى العهد باستعارة الحبل "مشبه به" للعهد "مشبه" ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النقض على طريق الاستعارة بالكناية.

ولما ذكر الله- عزوجل- الذين ينقضون عهدهم فى كل مرة بين مايجب أن يعاملوا به فقال تعالى" **فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** " أى إن ظفرت فى الحرب بهؤلاء الكفار الذين ينقضون العهد فافعل بهم فعلا يفرق بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ذلك النكال فيمنعهم ذلك عن نقض العهد. ثم أمر الله- تعالى- نبيه- صلى الله عليه وسلم- بنبذ من ينقض العهد فقال: " **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** " أى: وإن تخف من قوم معاهدين خيانة ونكثا بأمارات ظاهرة فاطرح إليهم العهد على طريق مستو ظاهر، وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم إخبارا مكشوفا بينا أنك قطعت مابينك وبينهم ولاتبادرهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك لأن الله لايحب الخائنين فى العهود.

وفى قوله" فَانبِذْ إِلَيْهِمْ " استعارة بالكناية حيث شبه العهد بالشىء الذى يرمى بجامع عدم الرغبة فى كل، واستعار الشىء الذى يرمى للعهد وحذفه، ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو النبذ وإثبات النبذ تخييل.

قال الله تعالى: " **وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**"

علاقة الآيات بماقبلها:

لما بين الله- عزوجل- مايفعل الرسول- صلى الله عليه وسلم- فى حق من يجده فى الحرب ويتمكن منه، وذكر أيضا مايحب أن يفعله فيمن ظهرمنه نقض العهد، بين أيضا حال من فاته فى يوم بدر وغيره لئلا يبقى حسرة فى قلبه، فقد كان فيهم من بلغ فى أذية الرسول- عليه الصلاة والسلام.مبلغا عظيما، وأمره- أيضا- بالإعداد لهؤلاء الكفار.

المعنى العام:

" **وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ** " أى لايظنن الذين كفروا ممن تخلفوا عن المشركين فى غزوة بدر وممن حضروها ونجوا من القتل والأسر وممن غدروا وخانوا العهد من بنى قريظة وغيرهم أنهم سبقوا إلى الحياة والنجاة إنهم غير معجزينا عن أخذهم والانتقام منهم فى الدنيا والآخرة فلاتأس لنجاتهم وعدم إصابتهم فى غزوة بدر إن كادوا لك كيدا وآذوك فالله تعالى لهم بالمرصاد.

وجاء الخبر فى قوله تعالى" **إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ** " مؤكدا بإن وإسمية الجملة لأنه مسبوق بكلام يشير إشارة ما إلى جنس الخبر حتى إن النفس اليقظى والفهم المتسارع يكاد يتردد فيه ويطلبه، فقوله" **ولايحسبن....**" تلويح وإشارة إلى جنس الخبر وهو ألايظن الذين كفروا أنهم سبقوا إلى الحياة والنجاة، ولاشك أن الله معاقبهم، وقادر على ذلك، ومن مظاهر هذه القدرة أنهم لايعجزون.

ثم أمر الله- عزوجل- رسوله بالإعداد لهؤلاء فقال" **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ.....**" أى وأعدوا لهم أيها المؤمنون مافى وسعكم واستطاعتكم من كل مايتقوى به فى الحرب من عددها كالحصون وتعلم الرمى خصوصا الخيل التى تربط فى سبيل الله لأنكم بذلك ترهبون عدو الله وعدوكم وهم أهل مكة، وكذلك ترهبون آخرين من دون أهل مكة- وهم اليهود أو المنافقون أوفارس أو

الجن لاتعلمونهم الله يعلمهم ثم حثهم على الإنفاق فى سبيل الله من جهاد وغيره فقال:" **وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ** " أجره فلا يضيع ثوابه فى الآخرة ويعجل عوضه فى الدنيا، وأنتم لاتنقصون من ثوابه شيئا.

وذكر عدو الله أولا فى قوله" **تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ** " تعظيما لماهم عليه من الكفروتقوية لذمهم وأنه يجب لأجل عداوتهم لله أن يقاتلوا ويبغضوا، ثم قال(**وَعَدُوَّكُمْ**) على سبيل التحريض على قتاله إذ الطبع أن يعادى الانسان من يعاديه.

وعبر عن ترك الإثابة أونقص الثواب فى قوله" **وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ** " بنفى الظلم لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك لتصويره بصورة مايستحيل صدوره عنه من القبائح وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه تعالى.

ثم بين أنهم عند الإرهاب إذا مالوا إلى الصلح فالحكم قبوله فقال" **وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** " أى إن مالوا إلى الصلح فمل إليه، وأنث الهاء فى "لها" لأنه قصر بها قصر الفعلة والجنحة، قال صاحب الكشاف: السلم تؤنث تأنيث نقيضها الحرب.

" **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ** " أى فوض الأمر فيما عقدته معهم إلى الله ليكون عونا لك على السلامة، ولكى ينصرك عليهم إذا نقضوا العهد وعدلوا عن الوفاء.

ولذلك قال تعالى" **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** " تنبيها بذلك على الزجر عن نقض الصلح، لأنه عالم بمايضمره العباد، وسميع لما يقولون. ثم بين حكما من أحكام الصلح، فقال:" **وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ**....." أى وإن يريدوا أن يخدعوك فالله حسبك وكافيك من مكرهم وخداعهم فإنه هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم وأحدث بينهم من التحاب والتواد، وأماط عنهم من التباغض والتماقت لوأنفق يامحمد مافى الأرض جميعا لتؤلف بينهم ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم، فهو القادر على ذلك إنه عزيز غالب على أمره، حكيم لايخرج شىء عن حكمته.

وجعل التأليف بين القلوب لابينهم فى قوله "وألف بين قلوبهم" للإشعار بأن التأليف بين القلوب لايتسنى لأحد وإن أمكن التأليف ظاهرا.

قال الله تعالى" **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ لآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** "

علاقة الآيات بماقبلها:

لما وعد الله- عزوجل- نبيه- صلى الله عليه وسلم- بالنصر عند مخادعة الأعداء وعده بالنصر والظفر فى هذه الآية مطلقا على جميع التقديرات

المعنى العام:

يأيها النبى كفاك الله وكفاك من اتبعك من المؤمنين وإن كان- سبحانه- يكفيك بنصره ونصر المؤمنين، فليس من الواجب أن تتكل على ذلك إلاَّ بشرط أن تحرض المؤمنين على القتال فإنه تعالى إنما يكفيك بشرط أن يحصل منهم بذل النفس والمال فى المجاهدة وصدرت الجملة فى قوله تعالى" يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك..."بحرفى التنبيه والنداء للإشارة إلى أهمية مضمونها والاعتناء به. وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة للإشعار بعليتها للحكم أى ليكن كافيك الله لأنك نبى، ولتأمر المؤمنين بأن يستكفوا بالله لأنك نبى مبلغ عن الله ومقتضى النبوة وجوب الاستكفاء بالله والتبليغ للمؤمنين بوجوب استكفائهم بالله.

وكرر الله تعالى صيغة الخطاب فى قوله" **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ** " لإظهار كمال الاعتناء بشأن المأموربه.

وأخبر- عزوجل- نبيه أن العشرين الصابرين من أصحابه يغلبوا مائتين من الكفار لأنه- سبحانه- قد وعد بكفايته لهم فقال" **إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ**".

وهذه الآية الكريمة فيها جملتان شرطيتان حذف من كل منهما مادلت عليه الأخرى وقد نعت- سبحانه- فى الشرطية الأولى العشرين بالصبر وقيد به، وحذف هذا النعت المقيد فى الشرطية الثانية اكتفاء بذكره فى الأولى

ووصف المغلوب فى الشرطية الثانية بالكفر وحذفه من الأولى اكتفاء فى الثانية، وهذا اللون من الأسلوب من الألوان البديعية ويسمى بالاحتباك وهو من ألطف الأنواع وأبدعها وهو أن يحذف من الأول ماأثبت نظيره فى الثانى، ومن الثانى ماأثبت نظيره فى الأول.[1]

وقوله تعالى" **بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ** " بيان لعلة هذه الغلبة، وذلك لأن من لايؤمن بالله ولايؤمن بالمعاد السعادة عنده والبهجة ليست إلا هذه الحياة الدنيوية، ومن كان هذا معتقده فإنه يشح بهذه الحياة ولايعرضها للزوال وهذا على خلاف من يعتقد سعادته فى الدار الآخرة ومن ثم لايبالى بهذه الحياة الدنيا فيقدم على الجهاد بقلب قوى، ومتى كان الأمر كذلك كان الواحد من هذا الصنف يقاوم العدد الكثير ممن لايؤمن بالله واليوم الآخر.

وبعد تكليف المؤمنين بثبات الواحد للعشرة مدة شق على المسلمين ذلك بسبب ضعفهم الحاصل من الاعتماد على كثرتهم أو من تقدمهم فى السن خفف الله عنهم فقال تعالى" **الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**".

وكرر المعنى الواحد وهو مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لاتتفاوت لأن الحال قد

---

[1] - انظر الإتقان للسيوطى ص (٣٨٣).

تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين.

وحذف قيد مائتين اكتفاء بما فى الآية السابقة أى مائتين من الذين كفروا وحذف قيد الصبر فى الألف اكتفاء بما فى الشرطية السابقة.

وقوله تعالى" **إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ** " ليس المراد منه الخبر بل المراد الأمر كأنه قال تعالى" **إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ** " فليصبروا وليجتهدوا فى القتال حتى يغلبوا مائتين.

أما الزمخشرى فقد قال فى الكشاف إن هذه الجملة خبرية لفظا ومعنى وهى عدة من الله وبشارة بأن جماعة المؤمنين إن صبروا غلبوا بإذن الله.

وقوله تعالى" **وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** " ترغيب فى الثبات على الجهاد، وهو تذييل مقرر لمضمون ماقبله، وإشارة إلى تأييدهم وأنهم منصورون حتما لأن من كان الله معه لايغلب.

قال الله تعالى" **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**".

علاقة الآيات بماقبلها:

بينت هذه الآيات حكما آخر من أحكام الجهاد فى حق البى- صلى الله عليه وسلم-

المعنى العام:

يقول الله تعالى" **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ....**" أى مايجب وماينبغى أن يكون لنبى من الأنبياء أسرى حتى يثخن فى الأرض ويكثر القتل ويبالغ فيه، ويذل الكفر، ويعزقم ويعز الإسلام ثم عاتبهم- عزوجل- على أخذ الفداء فقال: " **تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا** " وحطامها الفانى والله يريد لكم ثواب الآخرة ولايريد مايقضى إلى السعادات الدنيوية التى تعرض وتزول وإنما يريد مايفضى إلى العادات الأخروية الباقية الدائمة المصونة عن التبديل والزوال.

وحتى فى قوله تعالى" **حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ** " لانتهاء الغاية، وهذا يدل على أن بعد حصول الاثخان فى الأرض له أن يقدم على الأسر، ولذلك قال ابن عباس: هذا الحكم إنما كان يوم بدر، لأن المسلمين كانوا قليلين، فلما كثروا وقوى سلطانهم أنزل الله بعد ذلك فى الأسارى" **حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** "[محمد:٤]

وفى قوله تعالى" **حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ** " استعارة تبعية شبهت المبالغة فى القتل والجراحة بالثخانة والغلظ فى الأجسام بجامع المنع من الحركة فى

كل، وكذلك الشدة، واستعير الثخنة للمبالغة واشتق منه يثخن بمعنى يبالغ فى القتل والجراحة.

وفى قوله تعالى" **وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ** " مشاكلة حيث ذكر الإرادة وأراد الرضا لوقوعها فى صحبة" **تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا** " وإلا لزم تخلف المراد تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.ولما كان حطام الدنيا حدثا قليل اللبث عبر عنه بالعرض فى قوله" تريدون عرض الدنيا".

ثم قال الله- تعالى- "**وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** " والمراد أنكم إن طلبتم الآخرة لم يغلبكم عدوكم لأن الله عزيز لايقهر ولايغلب، حكيم فى تدبير مصالح العالم.

ثم قال الله تعالى" **لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** " أى لولا أنه تعالى حكم فى الأزل بالعفو عن هذه الواقعة لمسهم عذاب عظيم، أو ألايعاقب المخطىء فى اجتهاده وألايعذب أهل بدر لمسهم بسبب ما أخذوه من الفداء عذاب عظيم،ثم قال تعالى" **فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا** " روى أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم إليها، فنزلت هذه الآية، وقيل هو إباحة الفداء.

" **وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** " أى واتقوا الله فلا تقدموا على المعاصى بعد ذلك واعلموا أن الله غفور لما أقدمتم عليه فى الماضى من الزلة، رحيم بما أتيتم من الجرم والمعصية.فقوله" **وَاتَّقُواْ اللَّهَ** " إشارة إلى المستقبل، وقوله تعالى" **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** " إشارة إلى الحالة الماضية.

ولما أخذ الرسول- صلى الله عليه وسلم- الفداء من الأسارى وشق عليهم أخذ أموالهم منهم، وذكر الله هذه الآية استمالة لهم فقال- سبحانه- " **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** " أى يأيها النبى بلغ عن الله من فى قبضتكم من الأسرى إن يكن فى قلوبكم ميل إلى الإسلام والتصديق برسول الله- صلى الله عليه وسلم- يؤتهم خيرا مما أخذ منهم من الفداء ويغفر لهم ماسبق قبل الإسلام من الذنوب والكبائروالله سبحانه غفور لمن رجع عن الكفر فآمن وتاب من كفره ومعاصيه رحيم بأهل طاعته وأتباع نبيه- صلى الله عليه وسلم-.

قال ابن عباس- رضى الله عنهما-: نزلت فى العباس، وعقيل بن أبى طالب، ونوفل ابن الحارث، كان العباس أسيرا يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس، وكان أحد العشرة الذين ضمنواالطعام لأهل بدر فلم تبلغه النوبة حتى أُسِرَ، فقال العباس: كنت مسلما إلا أنهم أكرهونى.

فقال عليه الصلاة والسلام" إن يكن ماتذكره حقا فالله يجزيك فأما ظاهر أمرك فقد علينا".

قال العباس: فكلمت رسول الله أن يرد ذلك الذهب على فقال" أما شىء خرجت لتستعين به علينا فلا" وكلفنى الرسول فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية، وفداء نوفل بن الحرث

فقال العباس: تركتنى يامحمد أتكفف قريشا، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها: لاأدرى مايصيبنى، فإن حدث بى حادث فهو لك ولعبدالله وعبيد الله والفضل"، فقال العباس: ومايدريك؟ قال" أخبرنى به ربى".

قال العباس: فأنا أشهد أنك صادق وأن لاإله إلا الله وأنك عبده ورسوله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها فى سواد الليل ولقد كنت مرتابا فى أمرك، فأما إذأخبرتنى بذلك فلاريب.

قال العباس: فأبدلنى الله خيرا من ذلك....وأنا أنتظر المغفرة من ربى.

وقد قيل: إن الآية نزلت فى كل الأسرى، وقيل نزلت فى العباس خاصة. إلا أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب. ومعنى " **إِن يَعْلَمِ اللَّهُ** " أى إن يتبين علم الله فى قلوبكم خيرا أى إسلاما كما زعمتم بأن تظهروا الإسلام يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من الفداء.

وقوله تعالى" **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** " تأكيد لما مضى ذكره من قوله تعالى: " **وَيَغْفِرْ لَكُمْ** " والمعنى: كيف لايفى بوعد المغفرة وأنه غفور رحيم؟ ثم بشر الله نبيه بأنه سيمكنه ممن خانه فقال تعالى" **وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ** ". أى أنهم خانوا الله بما أقدموا عليه من محاربة الرسول يوم بدر فأمكن الله منهم قتلا وأسرا وذلك نهاية الإمكان والظفر، فنبه الله بذلك على أنهم قد ذاقوا وبال مافعلوه ثم، فإن عادوا كان التمكين

منهم ثانيا حاصلا، وفيه بشارة للرسول- صلى الله عليه وسلم- بأن يتمكن من كل من يخونه وينقض عهده.

ثم قال تعالى" **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** " أى عليم ببواطنهم وضمائرهم، وحكيم يجازيهم بأعمالهم.وتنكير قوله "**غفور رحيم، عليم حكيم**" للتعظيم.

وجاءت"إن" الشرطية وهى للشك فى قوله" **وإن يريدوا خيانتك**" لتدل على وقوع خيانة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وبلوغ أثرها من نيل وأذى لرسول الله أمر مشكوك فيه لأن الله حافظه وممكنه من كل من يخونه وينقض عهده.

قال الله تعالى" **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**".

علاقة الآيات بماقبلها:

ختمت السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذى يستعين به، وقد قسم الله المؤمنين فى زمان الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى أربعة أقسام وذكر حكم كل قسم على حدة.

المعنى العام:

قوله تعالى" **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ**..."فيه تقسيم للمؤمنين فى زمان الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى أربعة أقسام وذكر حكم كل واحد منهم، وتقرير هذه القسمة أنه عليه الصلاة والسلام ظهرت نبوته بمكة ودعا الناس هناك إلى الدين، ثم انتقل من مكة إلى المدينة، فحين هاجر من مكة إلى المدينة صار المؤمنون على قسمين: منهم من وافقه فى تلك الهجرة، ومنهم من لم يوافقه فيها بل بقى هناك.[1]

أما القسم الأول:

فهم المهاجرون الأولون، وقد وصفهم بقوله تعالى" **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ** " أى آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقبلوا جميع التكاليف التى بلغها محمد- صلى الله عليه وسلم- إليهم، وهاجروا مفارقين الأوطان وتاركين

---

١ - مفاتيح الغيب ج ٧ ص (٥٥٢).

الأقارب والجيران فى طلب مرضاة الله، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، أما جهادهم بالمال فلأنهم لما فارقوا الأوطان فقد ضاعت دورهم ومساكنهم وضياعهم ومزارعهم، وبقيت فى أيدى الأعداء وكذلك كانوا ينفقون أموالهم على تلك الغزوات. وأما المجاهدة بالنفس فلأنهم أقدموا على محاربة بدر من غير آلة ولا أهبة ولاعدة مع الأعداء الموصوفين بالكثرة والشدة. وقدم الأموال على الأنفس فى قوله" بأموالهم وأنفسهم" لأن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعا وأتم دفعا للحاجة حيث لايتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال.

وأما القسم الثانى من المؤمنين الموجودين فى زمان سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- فهم الأنصار، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام لماهاجر إليهم مع طائفة من أصحابه فلولا أنهم آووا ونصروا وبذلوا النفس والمال فى خدمة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وإصلاح مهمات أصحابه لما تم المقصود ألبتة.

وقدم المهاجرين الأولين على الأنصار لفضل سبقهم فى الإيمان الذى هو رئيس الفضائل وعنوان المناقب، كما أنهم تحملوا العناء والمشقة دهراً دهيراً وزمانا مديدا من كفار قريش وصبروا عليه، كما أنهم تحملوا المضار الناشئة من مفارقة هذين الأوطان والأهل والجيران.

ولما ذكر الله تعالى هذين القسمين فى هذه الآية قال- سبحانه- " **أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ** ". أى أن يكونوا يدا واحدة على الأعداء، وأن يكون حب كل واحد لغيره جاريا مجرى حبه لنفسه.

وقيل المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون القرابة وقد بقى هذا الحكم مدة ثم نسخ بقوله تعالى" **وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ** ". وأتى باسم الإشارة للبعيد فى قوله" **أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ** " للإيذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضيلة.

والقسم الثالث من أقسام مؤمنى زمان الرسول- صلى الله عليه وسلم- وهم المؤمنون الذين ماوافقوا الرسول فى الهجرة وبقوا فى مكة وهم المعنيون بقوله تعالى" **وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ** "أى ولم يهاجروا كسائر المؤمنين " **مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ** " أى مالكم من توليتهم فى الميراث من شىء وإن كانوا من أقرب أقربائكم حتى يهاجروا أومالكم من تعظيمهم وإكرامهم من شىء حتى يهاجروا وقوله" **حَتَّى يُهَاجِرُواْ** " فيه دفع لتوهم فهم من قوله" **مالكم من ولايتهم من شىء**" وهو أنهم لما لم يهاجروا مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- سقطت ولايتهم مطلقا، فأزال الله تعالى هذا الوهم بقوله" **حَتَّى يُهَاجِرُواْ** " يعنى أنهم لوهاجروا لعادت تلك الولاية وحصلت وفيه حمل على المهاجرة والترغيب فيها حتى يكثر عدد المسلمين واجتماعهم وإعانة بعضهم لبعض وحصول الألفة وعدم التفرقة.

وبين الله- عزوجل- أيضا- أنه ليس المراد منه المقاطعة التامة كما فى حق الكفار بل هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا لو استنصروكم فانصروهم ولاتخذلوهم فقال تعالى" وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر" ثم قال الله- تعالى- " **وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ** " أى أن الكفار فى الموارثة مع اختلاف مللهم كأهل ملة واحدة، فالمجوس يرث الوثنى والنصرانى يرث المجوسى.

ويستقيم هذا المعنى إذا حملنا الولاية على الإرث، والحق أن يقال: إن كفار قريش كانوا فى غاية العداوة فلما ظهرت دعوة محمد- صلى الله عليه وسلم- تناصروا وتعاونوا على إيذائه ومحاربته، فكان المراد من الآية ذلك.

ولما لم يكن للكفار مايوجب شيئا من أسباب الفضيلة، فوجب كون المسلمين منقطعين عنهم من كل الوجوه، فلايكون بينهم ولاية ولامناصرة بوجه من الوجوه وجملة قوله تعالى" **وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ** "خبرية لفظا إنشائية معنى، ومعناها منهى المسلمين عن موالاة الكفار ومؤازرتهم وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم وإن كانوا أقارب وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضا.

ثم إنه تعالى لما بين هذه الأحكام قال سبحانه" **إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** " والمعنى: إن لم تفعلوا مأأمرتكم به فى هذه التفاصيل المذكورة المتقدمة تحصل فتنة فى الأرض ومفسدة عظيمة، وذلك لأن

المسلمين لواختلطوا بالكفارفى زمان ضعف المسلمين وقلة عددهم، وزمان قوة الكفار وكثرة عددهم، فربما صارت تلك المخالطة سبا لالتحاق المسلم بالكفار.

أو أن المسلمين لوكانوا متفرقين لم يظهر منهم جمع عظيم فيصير ذلك سببا لجراءة الكفار عليهم.

ولماذكر الله- تعالى- هذا القسم الثالث، عاد إلى ذكر القسم الأول والثانى مرة أخرى فقال تعالى" **وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ".

وليس هذا بتكرار وذلك لأنه تعالى ذكرهم أولا ليبين حكمهم وهو ولاية بعضهم بعضا، ثم إنه تعالى ذكرهم ههنا لبيان تعظيم شأنهم وعلو درجتهم وذلك لأن الإعادة تدل على مزيد الاهتمام بحالهم ومن ثم يدل على الشرف والتعظيم. كما أنه تعالى أثنى عليهم ههنا من ثلاثة أوجه:

الأول قوله تعالى" **أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** " ودلالته على الحصر بتعريف الطرفين وضمير الفصل"هم"، وقوله " **حقا**" يفيد المبالغة فى وصفهم بكونهم محققين فى طريق الدين، وحالهم يدل على ذلك لأن مفارقة الأهل والوطن وبذل النفس والمال لأكبر دليل على إيمانهم حقا.

الثانى: قوله تعالى" **لَّهُم مَّغْفِرَةٌ** " وتنكير لفظ المغفرة يدل على الكمال أى لهم مغفرة تامة كاملة عن جميع الذنوب والتبعات.

الثالث" قوله تعالى" **وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** " والمراد منه الثواب، وأيضا تنكير لفظ" رزق" يدل على عظمه ومن ثم وصف بكونه كريما.

القسم الرابع من مؤمنى زمان سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- هم الذين لم يوافقوا الرسول فى الهجرة إلا أنهم بعد ذلك هاجروا إليه، وهو المراد من قوله تعالى " **والذين ءامنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم**" وكان ذلك بعد الحديبية وهى الهجرة الثانية، وقيل بعد نزول هذه الآية بعد يوم بدر والأصح أن المراد والذين هاجروا بعد الهجرة الأولى وهؤلاء هم التابعون بإحسان.

وقوله تعالى" فأولئك منكم" يدل على أن مرتبة هؤلاء دون مرتبة المهاجرين السابقين لأنه ألحق هؤلاء بهم وجعلهم منهم فى معرض التشريف ولولا كون القسم الأول أشرف لما صح هذا المعنى.

ثم قال الله تعالى" **وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ** " أى وأولواالأرحام بعضهم أولى ببعض فى التوريث من الأجانب وهذا الحكم ثابت فى كتاب الله أى فى حكمه وعلمه، أو فى اللوح المحفوظ أو فى القرآن.

ثم قال تعالى ختاما للسورة" **إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** " أى أن هذه الأحكام التى ذكرتها وفصلتها كلها حكمة وصواب وصلاح، وليس فيها شىء من العبث والباطل، لأن العالم بجميع المعلومات لايحكم إلابالصواب. ومن

جملة هذه الأحكام مافى تعليق التوارث بالقرابة الدينية أولا بالقرابة النسبية آخرا. والله أعلى وأعلم.

وكان الفراغ من هذا التفسير فى مساء الخميس التاسع عشر من شهر شوال سنة ١٤٣٠ الموافق الثامن من شهر أكتوبر سنة٢٠٠٩م.

أهم المصادر والمراجع

وهى بعد القرآن الكريم كالآتى.

١- البرهان فى توجيه متشابه القرآن- للكرمانى

٢- تفسير القرآن العظيم- ابن كثير- دار إحياء الكتب العربية- عيسى البابى الحلبى بدون.

٣- تفسير القرطبى

٤- تفسير البحر المحيط- أبوحيان.

٥- تفسير النسفى.

٦- تأويل مشكل القرآن- ابن قتيبة.

٧- التبيان فى إعراب القرآن- العكبرى- المكتبة التوفيقية ط أولى ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م

٨- تناسق الدرر فى تناسب السور- السيوطى- تحقيق عبدالقادر أحمد عطا.

٩- حاشية الجمل على الجلالين.

١٠- حسن الصنيع فى علم المعانى والبيان والبديع للشيخ محمد البسيونى

١١- شرح قطر الندى وبل الصدى- ابن هشام- تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد- دار الفكر- بدون

١٢- شذور الذهب فى معرفة كلام العرب- ابن هشام- تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد.

١٣- الكشاف-الزمخشرى- دار الفكر- ط أولى ١٣٩٧ه

١٤- لباب النقول فى أسباب النزول- السيوطى- تحقيق د/ حمزة النشرتى- المكتبة القيمة.

١٥- لسان العرب- ابن منظور طبعة دار المعارف.

١٦- مفاتيح الغيب- فخر الدين الرازى- دار الغد العربى طأولى ١٤١٤هـ -١٩٩٣م.

١٧- من أسرار التعبير القرآنى د/ محمد أبوموسى- مكتبة وهبة- ط ثانية ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م